جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

الدَّرسُ الدَّلالِيُّ للآيَاتِ الكَونِيَّةِ المُتَعلِّقَةِ بِيومِ القِيامةِ

د/ هاني على عبد العزيز أبو العلا
المدرس بقسم أصول اللغة
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية

(العدد الثاني والأربعون)
(الإصدار الثاني ٠٠أكتوبر)
(الجزء الخامس (١٤٤٥هـ /٢٠٢٣م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) 2536- 9083)
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٣/٦٢٧١م

الدرس الدلالي للآيات الكونية المتعلقة بيوم القيامة

هاني على عبد العزيز أبو العلا
قسم أصول اللغة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين ، بالشرقية، جامعة الأزهر الشريف- مصر.

البريد الإلكتروني: HaniAbouElEla.sha.b@azhar.edu.eg

الملخص:

يهدف البحث إلى بيان الدقَّة التي تميَّز بها القرآنُ الكريمُ في اختيار ألفاظه وكلماته، وأساليبه ومعانيه، وموضوع بحثي عن الآيات الكونية المتعلقة بيوم القيامة، ونجد منها آيات سماوية -كالسماء والشمس والقمر والنجوم والكواكب-، ومنها آيات أرضية -كالأرض والجبال والبحار-، وأهوال يوم القيامة وما يحدث لهذه الآيات الكونية من الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها، وقدم الله سبحانه وتعالى مشاهد ما يقع للآيات السماوية على مشاهد ما يقع للآيات الأرضية. واختيارُ (الآيات الكونية المتعلقة بيوم القيامة) أمرٌ مقصودٌ؛ لإظهار وبيان إعجاز القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه، مما يدُلُّ على أنَّ اللغة العربية استمدَّتْ فصاحتها من مصدري التشريع: (القرآن الكريم، والسنة النبوية). وقد جمعتُ هذه الآيات الكونية الواردة في النصوص، ودراستها دراسة دلالية في سياقاتها الواردة فيها؛ لبيان الموقف الصحيح من التفسير الدلالي للآيات الكونية في القرآن والسنة النبوية. وجاء هذا البحث بعنوان: الدرس الدلالي للآيات الكونية المتعلقة بيوم القيامة. وتكمُنُ فكرةُ هذا البحث في أنها تقومُ على عرضٍ وتحليلٍ لبعض آيات الظواهر الكونية المتعلقة بيوم القيامة وبيان دلالتها، وأما عن المنهج المتبع فيه، فهو المنهج الوصفيّ القائم على التحليل.

الكلمات المفتاحية: الدرس الدلاليّ، آيات، الآية الكونية، يوم القيامة.

The semantic lesson of the cosmic verses Related to the Day of Resurrection

Hani Ali Abdel Aziz Abu Al-Ela

Department of Language Fundamentals، College of Islamic and Arabic Studies for Boys، Sharqia، Al-Azhar University - Egypt.

Email*: HaniAbouElEla.sha.b@azhar.edu.eg*

Abstract

The research aims to explain the accuracy with which the Noble Qur'an is distinguished in choosing its terms and words، its methods and meanings، and the subject of my research is the cosmic verses related to the Day of Resurrection. Among them we find heavenly verses - such as the sky، the sun، the moon، the stars and the planets - and among them are earthly verses - such as the earth، the mountains and the seas - and the horrors of the Day of Resurrection. The Resurrection and what happens to these cosmic signs are unseen matters that must be believed in، and God Almighty presented the scenes of what happens to the heavenly signs to the scenes of what happens to the earthly signs Choosing (the universal verses related to the Day of Resurrection) is intentional; To show and explain the miracle of the Holy Qur'an، whose wonders never end، which indicates that the Arabic language derived its eloquence from the two sources of legislation: (the Holy Qur'an and the Sunnah of the Prophet) I have collected these universal verses contained in the texts، and studied them semantically in the contexts in which they are mentioned. To clarify the correct position on the semantic interpretation of the universal verses in the Qur'an and the Sunnah of the Prophet This research was titled: The semantic lesson of the cosmic verses related to the Day of Resurrection The idea of this research is that it is based on a presentation and analysis of some verses of cosmic phenomena related to the Day of Resurrection and an explanation of their significance. As for the method followed in it، it is the descriptive method based on analysis

Keywords: *: Semantic Lesson، Verses، Cosmic Verse، Day Of Resurrection.*

المقدمة:

الحمد لله رب الرياح والبرق والرعد، رافع السماوات بغير عمد، ومجري الأرض بمقدار وأمد، والصلاة والسلام على النبي محمدٍ ﷺ أشرف الخلق فكان خيرَ مدد، وعلى آله وأصحابه أجمعين أفضل السند، وبعد...

فقد اهتم علماءُ اللغة بألفاظ القرآن الكريم، وأَوْلُوها رعايةً واعتناءً كبيرين، وأزالوا الأقنعة عن معانيها، فأوضحوا الخفيَّ منها، وقد أحببتُ أن تكون دراستي في موضوع يجمع بين اللغة والقرآن؛ وذلك لِأهمية الدراسات الدلالية؛ لأنها المرآة التي تعكس ما يحدث في اللغة من تطور في دلالات ألفاظها.

وإنَّ شرَفَ كلِّ علمٍ بشرفِ موضوعه، وموضوع بحثى في كتاب الله ﷻ عن الآيات المتعلقة بالظواهر الكونية ليوم القيامة في سياقاتها الواردة فيها، ودراستها دراسة دلالية، واختيارُ مصطلح (الآية الكونية) أمرٌ مقصودٌ؛ لإظهار وبيان إعجاز القرآن الكريم الذى لا تنقضي عجائبه، مما يدُلُّ على أنَّ اللغة العربية قد استمدَّتْ فصاحتها من مصدري التشريع: (القرآن الكريم، والسنة النبوية).

وبعد استقراءٍ لألفاظ الظواهر الكونية في القرآن الكريم تجمَّعت ألفاظ كثيرة، منها ما يدل على السماء والأرض في دلالة أصلهما اللغوي، ومنها ما يدل عليهما بدلالة فحوى الخطاب، ومنها ما يتعلق بهما، وجاء البحث بعنوان: (الدرس الدلالي للآيات الكونية المتعلقة بيوم القيامة).

وقد اجتمع في هذا العنوان الخصائص التالية:

أولًا: الدراسة الدلالية التي نتعرَّف من خلالها على أسرار اللغة عامة، وإعجاز القرآن خاصة.

ثانيًا: معرفة آيات الظواهر الكونية المتعلقة بيوم القيامة، وكيفية الاستفادة من خصائص العربية، والوقوف على بيان أسرارها، ومعرفة مراد كلام الخالق ﷻ.

ثالثًا: الآيات الكونية ودراستها وتعلمها وتعليمها من الأمور المهمة، فقد أمر الله بالنظر والتفكر فيها؛ لأنه يقوي الإيمان في القلوب، ويؤدي إلى الإكثار من الأعمال الصالحة، والاستعداد للقدوم على الدار الآخرة.

وتكمُنُ فكرةُ هذا البحث في أنها تقومُ على عرضٍ وتحليلٍ دلالي لبعض الآيات الكونية الواردة في القرآن الكريم، ومدى تلاؤم وتقارب هذه الألفاظ مع السياق الذي وُضعَ له هذا اللفظ.

وقد اعتمد هذا البحث على كتب اللغة والمعجمات العربية، والدواوين الشعرية، ثم كتب التفاسير، وكتب معاني القرآن وإعرابه، وغريبه، وقد عمدتُ إلى الانتخاب في دراسة الآيات الواردة فيها، وقد تأتى ذلك من طبيعة المادة القرآنية، بسبب تعدد دلالات المادة القرآنية بتغير الاستعمال، فقد تأتي المادة كثيرة وغزيرة، وقد تأتي مقتضبة ومقتصرة على موضع واحد، ونسأل الله التوفيق والسداد والإخلاص.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

يتمتع البحث في الآيات الكونية بأهمية كبيرة، وقد جاءت آيات الظواهر الكونية المتعلقة بيوم القيامة معبّرةً عن الغرض الذى جاء لأجله القرآن الكريم، وهو الإعجاز، وقد استعمل القرآن الكريم تلك الآيات لدلالاتٍ عديدةٍ؛ للتعبير عن مدى إحاطة قدرة الله ﷻ بهذا الكون الواسع، وإثبات وجود الخالق، وللدلالة على ربوبيته، أو للدلالة على القدرة الْمُبدعة الْمُنشئة، ، فهو يمكن أن يساعد في:

-زيادة فهم الإنسان للكون وقوانينه. -تقوية الإيمان بالله وعظمته وقدرته. -إيجاد حلول للمشكلات الإنسانية.

وأما عن أسباب اختياره، فتمثلت في:

١ - دلالة الآيات الكونية على كمال قدرة الله وحكمته ﷻ في هذا الكون.

٢ - بيان منهج القرآن، وهدي النبي ﷺ تجاه الآيات الكونية.

٣ - كثرة الأدلة في الموضوع وتنوعها، وكثرة الحوادث في هذا الزمان، مع غفلة الناس عنها.

٤ - اختلاف الناس في التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن والسنة النبوية.

٥- خدمة القرآن الكريم والسُنَة عامةً، واللغة العربية خاصةً، فإنَّ اللغة جاءت دفاعًا وصيانةً لهما.

إشكالية البحث في الآيات الكونية: يواجه البحث في الآيات الكونية عددًا من الإشكاليات، منها:

* *الإشكالية المعرفية: وتتمثل في صعوبة فهم طبيعة الكون وقوانينه، فالكون واسع ومعقد، ويصعب على الإنسان فهمه.

* *الإشكالية المنهجية: وتتمثل في صعوبة تحديد المنهج المناسب للبحث في الآيات الكونية، فهناك العديد من المناهج المختلفة التي يمكن استخدامها حسب السياق

المختلف، ولكل منها مزايا وعيوب.

* *الإشكالية المعرفية: وتتمثل في صعوبة فصل البحث في الآيات الكونية عن العقائد الدينية، فكثير من الباحثين في الآيات الكونية هم من المؤمنين بالله، ويميلون إلى تفسير الآيات الكونية التفسير الديني دون اللغويّ.

بعض الحلول المقترحة للإشكاليات المتعلقة بالبحث في الآيات الكونية:

* *التكامل بين العلوم الدينية والعلوم الطبيعية: حيث يساعد ذلك في فهم طبيعة الكون وقوانينه بشكل أفضل.

* *استخدام مناهج البحث العلمي المختلفة: يمكن استخدام مجموعة متنوعة من مناهج البحث العلمي المختلفة للبحث في الآيات الكونية، بما في ذلك المنهج العلمي التجريبي، والمنهج العلمي التاريخي، والمنهج العلمي النقدي.

* *الموضوعية في البحث: يجب أن يكون الباحث في الآيات الكونية موضوعيًا في بحثه، وأن يسعى إلى الوصول إلى الحقائق العلمية دون تحيز.

أهداف البحث:

١ – بيان دلالة الآيات الكونية الواردة في النصوص الشرعية.

٢ –بيان التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن الكريم.

٣–بيان إعجاز لغة القرآن الكريم، والاستعانة بهذا في الرد على شُبَه المستشرقين والملحدين دفاعًا عن الدِّين.

منهج البحث:

وأما عن المنهج المتّبع فيه، فهو المنهج الوصفيّ الذي يقوم على التحليل، بحيث يصف الباحثُ الألفاظ موضع الدراسة، ثم يشرحها ويحللها تحليلًا لغويًا، وصولًا بها إلى أقرب المعاني المقصودة قدر الإمكان.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمةٍ، وتمهيدٍ، وفصلان، تقفوهما: خاتمةٌ، وفهارس فنية، وبيانها كالآتي:

- المقدمة، وفيها: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف البحث، ومنهجه، وخطة البحث.
- التمهيد، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مفهوم الآية الكونية في اللغة.

المبحث الثاني: أنواع الآيات الكونية، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآيات الكونية السماوية.

المطلب الثاني: الآيات الكونية الأرضية.

- الخاتمة، وفيها أهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها البحث.
- الفهارس الفنية.

وبعدُ، فإنني أسأل الله التوفيق والسداد والعَون، وأن يكون هذا البحثُ نافعًا لصاحبه وقارئهِ، وعلى الله قصدُ السبيل.

المبحث الأول: مفهوم الآية الكونية في اللغة.

تعريف الآية في اللغة:

الآيات جمع آية، والآية: العلامة، قال ابن فارس:" وَقَالُوا: الْآيَةُ الْعَلَامَةُ، قَالُوا: وَأَصْلُ آيَةٍ أَأْيَةٌ بِوَزْنِ أَعْيَةٍ، مَهْمُوزٌ هَمْزَتَيْنِ، فَخُفِّفَتِ الْأَخِيرَةُ فَامْتَدَّتْ"(١).

قال ابن عاشور:" وَالْآيَاتُ جَمْعُ آيَةٍ، وَأَصْلُهَا فِي اللُّغَةِ: الْعَلَامَةُ عَلَى الْمَنْزِلِ، وَهِيَ تدلُّ على أمورٍ منها: الشَّيْءُ الدَّالُّ عَلَى أَمْرٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَخْفَى، وَقِيلَ لِأَعْلَامِ الطَّرِيقِ آيَاتٌ؛ لِأَنَّهُمْ وَضَعُوهَا لِلْإِرْشَادِ إِلَى الطُّرُقِ الْخَفِيَّةِ، وَتُسَمَّى الْحُجَّةُ آيَةً؛ لِأَنَّهَا تُظْهِرُ الْحَقَّ الْخَفِيَّ، كَمَا قَالَ الْحَارِثُ بْنُ حِلِّزَةَ(٢):

مَنْ لَنَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ آيَا *** تٌ ثَلَاثٌ فِي كُلِّهِنَّ الْقَضَاءُ

وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ مُعْجِزَةُ الرَّسُولِ آيَةً كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِى تِسْعِ آيَاتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾(٣)

وَسَمَّى اللَّهُ الدَّلَائِلَ عَلَى وُجُودِهِ، وَعَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَعَلَى إِبْطَالِ عَقِيدَةِ الشِّرْكِ آيَاتٍ، فَقَالَ تعالى: ﴿وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ﴾ (٤) وَهِيَ الْجُمْلَةُ مِنْ

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس- تحقيق: عبد السلام هارون- ١/ ١٦٨-دار الفكر-١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(٢) البيت من الخفيف، وهو في ديوانه- صنعة مروان العطية- ص٧٢ – دار الهجرة – بيروت- ط١- ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

(٣) سورة النَّمْل: ١٢.

(٤) سورة الْأَنْعَام: ٤.

جُمَلِ الْقُرْآنِ، سُمِّيَتْ آيَةً لِدَلَالَتِهَا عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ بِمَجْمُوعِ مَا فِيهَا مِنْ دَلَالَةِ صُدُورِ مِثْلِهَا مِنْ أُمِّيٍ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ(١).

وقال الشنقيطي:" والآية في القرآن تطلق على معنيين: الأول: إطلاق الآية على الشرعية الدينية، كآيات القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾(٢).

الثاني: إطلاق الآية على الآية الكونية القدرية، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(٣) أي علامات كونية قدرية، يعرف بها أصحاب العقول السليمة أن خالقها هو الرب المعبود وحده جل وعلا"(٤).

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور "بتصرف" -١/ ٤٤٥، ٤٦٣، ٧٢٣ - الدار التونسية- تونس- ط١- ١٩٨٤م.

(٢) سورة الْبقرة: ٢٥٢.

(٣) سورة آل عمران: ١٩٠.

(٤) أضواء البيان للشنقيطى- ٤/ ٥٢، وما بعدها بتصرف- دار ابن حزم- بيروت- ط٥- ١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م.

تعريف الكون:

الكون هو هذا المجهول الكبير الذي عَلِمْنا عنه القدرَ اليسيرَ بما هيَّأهُ الله ﷻ لنا من صناعة أدواتٍ وآلاتٍ، استطعنا بها أن نسبرَ أغوار الفضاء لمن قدَّر الله له ذلك من العلماء، ومن الوسائل العلمية التي توصَّل إليها الإنسانُ؛ ليُدركَ بها سُبُل المعيشة في هذا الكون بكل ما فيه من: المجرات، والنجوم، والكواكب، والأقمار، والنيازك، والشُّهُب، والأحجار الكونية التي تسبحُ في السماء، إلى الأرض التي نعيش عليها، والتي لا يعلم ما في هذا الكون إلا الله تعالى، فهناك أشياءٌ لا يُدركُها عقلُنا البشريُّ القاصرُ الذي لا يستطيع أن يصل إلا إلى علمٍ يتوافقُ مع حدوده، وفكره، وما قدَّرهُ الله له، فعلمُ الله تعالى لا ينتهى، وكلُّ اكتشافٍ جديدٍ في هذا الكون لا يتعدَّى حدود قوله تعالى:﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١).

إنَّ الإنسان عندما يتعمق في دراسة الكون إنما يتعمَّقُ بعلم الله وخلقه سبحانه، فعلمهُ تعالى لا ينتهى إلى قيام الساعة، وحينما نتأمل دلالة هذه اللفظة نرى أنَّ" الْكَافُ وَالْوَاوُ وَالنُّونُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الْإِخْبَارِ عَنْ حُدُوثِ شَيْءٍ، إِمَّا فِي زَمَانٍ مَاضٍ أَوْ رَاهِنٍ، يَقُولُونَ: كَانَ الشَّيْءُ يَكُونُ كَوْنًا، إِذَا وَقَعَ وَحَضَرَ"، "وَقَالَ اللَّيْث: الكَوْنُ: الحَدَثُ، يكونُ من النّاس، والكائنة أَيْضا: الأَمْرُ الحادِثُ"(٢).

إن علم الكون حقلٌ مليءٌ بالأسرار الغامضة، وهو مجالٌ يشملُ الكون كله من: كواكب، ونجوم، وغيرهما، وكلها تَسْبَحُ في الفضاء المترامي الأطراف حولنا، ولا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، ولم يتمكَّن علماء البحث والتنقيب، وغيرهم من تحديد العصر التاريخي الذي بدأ فيه الاهتمام بعلم الفلك.

---

(١) سورة الإسراء: ٨٥.

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ٥/ ١٤٨، وتهذيب اللغة١٠/ ٢٠٥.

وإنَّ من أروع ما يدركه الإنسان المتأملُ في الكون كثرة الأدلة الماديَّة الملموسة على كل حدثٍ وقع في الكون، ويمكن للإنسان بحواسه وعقله إدراكُها لو اتَّبع المنهج العلميَّ الاستقرائيَّ الصحيح...، وعلى ذلك فإن مقابلة كلام الله ﷻ بمحاولة البشر لتفسيره وإفهامه للآخرين، وإثبات جوانب الإعجاز فيه لا تنتقص من جلال الربوبية، وإنما تزيد المؤمنين ثباتًا على إيمانهم، وتقيم الحجَّة على الجاحدين [1]؛ لذا كانت هذه المقدمة.

(١) السماء في القرآن الكريم- د: زغلول النجار -بتصرف- ص٤٧- دار المعرفة- بيروت- ط٣- ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

المبحث الثاني: أنواع الآيات الكونية.

تمهيد

الآيات الكونية المتعلقة بيوم القيامة منها: آيات سماوية، كالسماء، والشمس، والقمر، والنجوم، والكواكب، ومنها: آيات أرضية، كالأرض، والجبال، والبحار، وأهوال يوم القيامة وما يحدث لها من الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها.

وقدم الله سبحانه وتعالى مشاهد ما يقع للآيات السماوية على مشاهد ما يقع للآيات الأرضية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ ﴾ [1]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ ﴾[2]، فيجب التصديق بها وعدم التكلف فيها، فإن مثل هذه الأمور لا تدرك إلا بخبر عن الله ﷻ وعن نبيه ﷺ.

المطلب الأول: الآيات الكونية السماوية

إن القرآن الكريم دقيق في ألفاظه وكلماته، فإذا جاء اللفظ مفردًا كان ذلك لمقتضىً يطلبه، وإذا كان مجموعًا كان لحالٍ يناسبه، كذلك إذا كان مفردًا أو مقترنًا بغيره، فإن الاقتران بين السماء والأرض، والسموات والأرض التي شكلتها السياقات القرآنية يقف وراء كل اقترانٍ منها مطلبٌ إعجازيٌّ، وهدفٌ مقصودٌ، فضلًا عن دلالة اللفظ صراحة، فالسماء جاءت مفردة تارة ومجموعة تارة أخرى، والأرض لم تأتِ إلا مفردة، وقد تأتي السماء مع الأرض في سياقٍ أو لا تأتي، والسموات كذلك؛ لأن السياق في سور القرآن ونظام الآيات والفواصل ووحدة المعاني يتطلب التغاير

---

(١) سورة الانفطار: ١-٣.

(٢) سورة الانشقاق: ١-٣.

والاختلاف، فلا يصلح تعبير مكان تعبير، فيلزم الإفراد في مكانه ولا يصلح غيره، أو يلزم الاقتران في مكانه ولا يصلح غيره.

أولًا: السماوات:

أخبر الله ﷻ أن هذه السماوات على ارتفاعها الشاهق، وسُمْكِها العظيم، وعددها الكثير، وجمالها الباهر، تأتي ساعة من الساعات ويكون في ذلك خرابها وزوالها في يوم القيامة، وقد وَعَد الله ﷻ بأن يجعل للكون نهاية، فكما خلقه سوف ينهيه.

قال ابن كثير:" يُخْبِرُ ﷻ عَنْ أَهْوَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ، قَالَ تَعَالَى:﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ ﴾[1] أَيْ: تذهب من أماكنها وتزول[2].

وقَالَ تَعَالَى:﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧ ﴾[3] يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ مَعَ مَا شَاكَلَهَا مِنَ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي مَعْنَاهَا، قَالَ تَعَالَى:﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ ﴾[4]،قَالَ تَعَالَى:﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ﴾ [5]، وَقَوْلِهِ: (فَكَانَتْ وَرْدَة كَالدِّهَانِ) أَيْ: تَذُوبُ كَمَا يَذُوبُ الدّرْدي وَالْفِضَّةُ فِي السَّبْكِ، وَتَتَلَوَّنُ كَمَا تَتَلَوَّنُ الْأَصْبَاغُ الَّتِي يُدْهَنُ بِهَا، فَتَارَةً حَمْرَاءَ وَصَفْرَاءَ وَزَرْقَاءَ

---

(١) سورة الطُّورِ:٩.

(٢) تفسير ابن كثير- تحقيق: سامي بن محمد السلامة- ٥/ ١٦٤- دار طيبة- ط٢- ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(٣) سورة الرحمن:٣٧.

(٤) سورة الْحَاقَّةِ: ١٦.

(٥) سورة الْفُرْقَانِ:٢٥.

وَخَضْرَاءَ، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ وَهَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْعَظِيم، وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ[1]: حَدَّثَنَا أَنَس بْن مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: [يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَطِشُّ عَلَيْهِمْ] "[2]، "وقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الطَّشُّ والطَشيشُ: الْمَطَرُ الضَّعِيفُ، وهو فوقَ الرذاذِ"[3]، وفي نهاية الأمر تنتهي السماء بنزعها وطيها، كما قال تعالى: (وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ) أي: قلعت ونزعت بشدة فطويت.

دلالة طيّ السماء:

ولبيان عِظَم خلق الله تعالى في السماء ذكر بعض الباحثين أنه:" اعتمد الفلكيون قياس المسافات في السماء بالسنين الضوئية، أي بالمسافة التي يجتازها الضوء في سنة واحدة والتي تساوي ٥.٩ مليون كيلو متر تقريبًا، وتحتوي السماء على نجوم متعاقبة المغيب تحت الأفق، وأخرى تشرق من ناحية الشرق دون انقطاعٍ، أمَّا مجرتنا فهي واحدةٌ من آلاف المجرّات التي تتباينُ بالشكل والحجم، كما توجد في الفضاء سحب كبيرة تتكون من الغاز والغبار تُدْعى: السُّدم.

إن الكرة السماوية وما عليها من أجرامٍ تبدو متحركةً فوق رؤوسنا من الشرق إلى الغرب، بسبب دوران الأرض حول الشمس مرة في السنة، تبدو الأخيرة كأنها تتحرك وسط النجوم"[4]- فسبحان الله الخالق المصور-.

---

(١) ينظر: مسند الإمام أحمد- تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون- إشراف: د عبد الله التركي٢١/ ٣٢١- حديث رقم (١٣٨١٥)- مؤسسة الرسالة-بيروت- ط١- ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

(٢) تفسير ابن كثير- ٧/ ٤٩٨.

(٣) الصحاح للجوهري- تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار- ٣/ ١٠٠٩- دار العلم للملايين- بيروت- ط٤- ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٤) الموسوعة الفلكية د: خليل البدوى- ص٦- دار عالم الثقافة- عمَّان- الأردن- ط١- ١٩٩م.

وفي نهاية الأمر تنتهي السماء بقدرة الله بنزعها وطيها، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[1]، وأن هذا الطيَّ كطيِّ السجل للكتب، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ﴾ [2].

ومن دلالة هذه الآية الكريمة أنها تُعيدُ على مسامعنا وتصوّرنا ابتداء الخلق ونهايته، مما يدلُّ على أهمية هذا الحدث في وجودنا ووجود هذا الكون، والمعنى العام لفهم الآية هو بدءُ خلق الكون بكلِّ ما فيه، مما نراه بأعيننا المجردة الحسّيَّة، وما لا نراهُ حتى بأحدث الأجهزة العلمية، وربما لن نتمكَّن من رؤيته، ومما وصل إليه علمُنا بإدراكنا البشريّ، وما لا نصلُ إليه؛ نتيجةً لتوقُّف عقولنا عند حدودٍ معيَّنةٍ لا نستطيع إدراكها؛ ليظل هذا سرًّا من أسرار الخالق ﷻ في خلقه، وامتثالًا لقوله تَعَالَىٰ:﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [3].

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة دالة على مثل ما دلت عليه النصوص القرآنية، ومبينة لما يقوله الحق ﷻ بعد قبضه الأرض، وطيه السماء، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:[يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ] [4].

(١) سورة الزمر: ٦٧.

(٢) سورة الأنبياء: ١٠٤.

(٣) سورة النحل: ٨-٩.

(٤) صحيح البخاري- اعتنى به د: محمد زهير الناصر- ٩/ ١١٦-حديث (٧٣٨٢)-دار طوق النجاة - بيروت - ط ١- عام ١٤٢٢هـ.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما –قال: قال رسول الله ﷺ:[يطْوِي اللهُ ﷻ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ](١).

ويتضح من ذلك أنَّ هذا الكونَ الذي قُدِّرت أبعادُهُ بنيِّفٍ وعشرين بليون سنة ضوئية، يخضعُ ويسكُنُ في يدِ خالقه ﷻ كصحائف الكُتُب في يدِ قارئها! حقًّا إنه تشبيهٌ رائعٌ، ودلالةٌ عظيمةٌ تحتاجُ منا التأملَ والتفكّر في خلق الكون.

ومن دلالة هذه الآية ما يلى: أولًا: يخبرنا الله ﷻ: أنه مهما اتسع الكونُ، وكثُرت محتوياتُهُ، وثُقُلَ وزرنُه، فهو لن يتكبرَ أو يستعصي على خالقه، بل سيطويه في سهولةٍ ويُسرٍ كما يطوي صاحبُ السِّجِلِّ صحائفَه.

ويؤكد لنا الخالق ﷻ هذه الحقيقة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢)، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٣).

ثانيًا: دلالة تشبيه الكون لنا بالصحائف المستوية، قد يكون مستويًا فعلًا، وهذا ما يرجحه كثير من الفلكيين، وما نراه من قرب تشبيه الكون لصفحات السجل، استواءً نراهُ في الكون من كل جانب حتى يخيل لنا أنه مستويًا لاستواء الصحائف.

---

(١) صحيح مسلم–تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى– ٤/٢١٤٨–حديث رقم(٢٧٨٨)–دار إحياء التراث العربي–بيروت–عام ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

(٢) سورة العنكبوت: ١٩.

(٣) سورة الروم: ٢٧.

ثالثاً: أنَّ دلالة تشبيه طيّ الكون بطيّ الصحائف لهو تشبيهٌ تفوقُ روعته أيَّ وصفٍ، ولا يمكن أن يصدر إلا من الحكيم العليم الذي خلق هذا الكون، فبعد تمدد الكون واتساعه إلى ما هو عليه الآن –أو إلى ما سوف يصبح عليه في المستقبل– من عملية انكماش الكون وانهياره، يطوي الخالق ﷻ هذا الكون بكل ما فيه فيعود هذا الشيء الذي كبر واتسع إلى ما كان عليه.

وذكر أحد الباحثين التفسير العلمي لطي السماء، فقال: "إن عملية انكماش الكون وانهياره على نفسه هذا الانهيار الهائل إلى نقطة بدايته لهو أقرب تفسير يستطيع العلم أن يقدمه حاليًا لِطَيِّ الكون، أو طيِّ السماء إلى ما كانت عليه في بداية الخلق، ومع ذلك فهناك بعض الملاحظات التي يجب أن نأخذها في الاعتبار:

الأولى: التعبير العلمي أو الإنساني لعملية الانكماش الذي يتبعه انهيار هائل هو انعكاس لما يراه أو يتصوره الإنسان في هذا الحدث الهائل من قوة وعنف تفوق مُقَدَّراتُهُ وطاقاتُه بل وخيالُه ...

ومن ناحية أخرى نرى في التعبير القرآني لطي السماء أو الكون هدوء يعكس مقدرة الخالق المقتدر، الذي يصدر منه هذا الحديث، فنهاية الكون كله بالنسبة إليه ليست بأكثر من عمل سهل هين نقوم به نحن كل يوم، ألا وهو طيُّ بعض الصحف ليس فيه عناء على الخالق، كما لا يسبب طيَّ الصحف أي عناء لنا.

الثانية: إذا كان انتهاء الكون حسب التفسير العلمي بانكماشه ثم انهياره يساعدنا في فهم الآية الكريمة وفي تفسير طي السماء الآن وإعادة الكون إلى ما بدأ منه، بل الأكثر من ذلك نجد فيه اتفاقًا كبيرًا مع النص القرآني، فليس معنى ذلك أن هذا هو

التفسير الوحيد للآية الكريمة، فالطي الإلهي للكون ممكن أن يتخذ صورة نموذج الانكماش والانهيار، وممكن أن يتم بصورة أخرى قد نعلمها وقد لا نعلمها"[١].

وقد دلّت لفظة السماء في القرآن الكريم بصيغة المفرد مئة وعشرين مرة، وبصيغة الجمع (سموات) مئة وتسعين مرة[٢] وقد دلّت كلا اللفظتين في القرآن الكريم على معانٍ هي: السقف، والسحاب، والمطر، وسماء الجنة والنار، والسماء ذاتها أي الوجه المقابل للأرض[٣] .

أولًا: دلالة السماء بمعنى السقف:

وردت السماء بمعنى السقف في موضعين:

١-قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾[٤] جاءت دلالة الآية في سياق جملة خبرية، أي: "وجعلنا السماء سقفًا للأرض ممسوكًا ومحفوظًا من كل شيطان رجيم"[٥] فبقدرة الله حُفظ هذا السقف بالإمساك من أن يقع أو يتزلزل كما قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ

---

(١) ينظر: موسوعة التفسير العلمي في القرآن والسنة- يوسف الحاج أحمد-ص ٤٠١- ٤٠٣- دار ابن حجر- ط٢- ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٢) ينظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم-إعداد: عبد الله إبراهيم-١/ ٦٣٨-٦٤٤-مركز تفسير للدراسات القرآنية- السعودية- ط١- ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

(٣) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر- لابن الجوزي- تحقيق: محمد عبد الكريم- مؤسسة الرسالة -بيروت-ط١- ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

(٤) سورة الأنبياء: ٣٢.

(٥) تفسير الطبري- تحقيق د: عبد الله بن عبد المحسن التركي-١٦/٢٦٢-دار هجر للطباعة- ط١- ١٤٢٢ هـ /٢٠٠١م.

لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾[١] وأراد حفظها "بالشهب عن تسمع الشياطين على سُكَّانه من الملائكة"[٢]، ويتضح ذلك أيضًا من قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴿٥﴾﴾[٣] فالله سبحانه يقسم بهذه السماء العالية الواقفة بقدرة الله بلا عمد، قال الطبري:" يَعْنِي بِالسَّقْفِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: السَّمَاءَ، وَجَعَلَهَا سَقْفًا؛ لِأَنَّهَا سَمَاءٌ لِلْأَرْضِ، كَسَمَاءِ الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ سَقْفُهُ وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ"[٤].

وقال ابن كثير:" وَقَوْلُهُ: (وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ): قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَشُعْبَةُ، وَأَبُو الْأَحْوَصِ: يَعْنِي: السَّمَاءَ، قَالَ سُفْيَانُ: ثُمَّ تَلَا {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا}، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ جُرَيْجٍ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ"[٥].

٢- قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾[٦]، ودلالة الآية تشير إلى خطابِ كلّ من اعتقد أنَّ الله ﷻ لن ينصر النبيَّ محمدًا ﷺ، ولن ينصر دينه، قال ابن كثير في هذه الآية:" قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ) أَيْ: بِحَبْلٍ (إِلَى السَّمَاءِ) أَيْ: سَمَاءِ بَيْتِهِ، (ثُمَّ لِيَقْطَعْ) يَقُولُ: ثُمَّ لِيَخْتَنِقْ بِهِ، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَعَطَاءٌ، وَأَبُو الْجَوْزَاءِ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُهُمْ"[٧].

---

(١) سورة الحج :٦٥.

(٢) الكشاف للزمخشري – ١١٥/٣– دار الكتاب العربي – بيروت– ط٣– ١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م.

(٣) سورة الطور: ٥.

(٤) تفسير الطبرى–٢١/ ٥٦٦.

(٥) تفسير ابن كثير – ٧/ ٤٢٩.

(٦) سورة الحج:١٥.

(٧) تفسير ابن كثير – ٥/ ٤٠٢.

وقال الزمخشري:" هذا كلامٌ قد دخله اختصارٌ، والمعنى: إن الله ناصرٌ رسوله في الدنيا والآخرة، فمَن كان يظنّ مِن حاسِدِيه وأعاديه أنَّ الله يفعلُ خلاف ذلك ويطمع فيه، ويغيظه أنه يظفر بمطلوبه، فليستقصِ وُسعَهُ وليستفرِغ مجهوده في إزالة ما يغيظه، بأن يفعل ما يفعل مَن بلغ منه الغيظ كلَّ مَبلغٍ حتى مدّ حبلًا إلى سماءِ بيته فاختنق، فلينظر وليصوّر في نفسه أنه إنْ فعل ذلك هل يذهبَ نصرُ الله الذي يغيظُه؟ وسُمى الاختناق قطعًا؛ لأنّ المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه"(١).

ويُلاحظ هنا دقّة دلالة لفظة (كَيدُ) في قوله تعالى: (هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)، فقد أوقع الفعل على الكيد، ولم يسنده إليه؛ لأن هذا الكافر لا يستطيع الانتصار على غيره، وفي ذلك بيان لعجزه وجُبنه، وأنَّ الكيد كما هو معلوم لا يقع إلا على العدو، فعلم أن هذا المشرك عدوٌ لنفسه، وأن السياق سياق تهكُّم واستهزاء به؛ لأن الكيد قد وقع عليه نفسه، وفي الآية" إخبارٌ بأن النبي ﷺ سينتصر، وهذا إعجاز علميّ؛ لأنه إخبار عن المستقبل، وقد تحقق ذاك"(٢).

---

(١) الكشاف للزمخشري ٣/ ١٤٧.

(٢) أسرار التعبير القرآني–د: فاضل صالح السامرائي–ص٤٢–دار الكتاب للطباعة والنشر– جامعة الموصل–ط١– ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

ثانياً: دلالة السماء بمعنى السحاب:

وردت السماء بمعنى السحاب في ستة وعشرين موضعًا، وقد اقترنت جميعها مع فعل الإنزال إلا في موضعين(١)، فقد جاءت مع الفعل الماضي (أنزل) اثنتي عشرة مرة، ومع الفعل (أنزلنا) خمس مرات، وبصيغة المضارع (ينزل) ثلاث مرات، وبصيغة المضعف (نزّل) مرتين، وبصيغة المضعف مع إضافة التشريف مرة واحدة.

فمما جاء من السماء بمعنى السحاب مع الماضي قوله تَعَالَىٰ:﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾(٢)، قال الطبري:" الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:{وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} يَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَطَرًا، فَأَخْرَجَ بِذَلِكَ الْمَطَرِ مِمَّا أَنْبَتُوهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ زَرْعِهِمْ وَغَرْسِهِمْ ثَمَرَاتِ رِزْقًا لَهُمْ غِذَاءً وَأَقْوَاتًا، فَنَبَّهَهُمْ بِذَلِكَ عَلَى قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَذَكَّرَهُمْ بِهِ آلَاءَهُ لَدَيْهِمْ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَهُوَ الَّذِي يَرْزُقُهُمْ"(٣).

وقال ابن كثير:" وَالْمُرَادُ بِهِ السَّحَابُ هَاهُنَا–فِي وَقْتِهِ عِنْدَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ مَا هُوَ مُشَاهَدٌ؛ رِزْقًا لَهُمْ وَلِأَنْعَامِهِمْ، كَمَا قَرَّرَ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ(٤).

والآية الكريمة تشير إلى فضل الله وإنعامه على الناس في إنزال الماء، وقوله: (مِنَ السَّمَاءِ) تفيد ابتداء الغاية، أي نزول الماء من السحاب لأنه يخرج منه، ويُلاحظ

---

(١) ينظر: سورة البقرة: ١٩، وسورة ابراهيم: ٢٤ .

(٢) سورة البقرة: ٢٢.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٣٩٠.

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ١٩٤.

هنا أنه قدم الجار والمجرور (من السماء) على المفعول به (الماء)؛ لأن السياق هنا سياق إنعامٍ وتفضُّلٍ في عملية إنزال الماء من فوقهم، فالتقديم هنا أبلغُ من التأخير؛ "لأنّ للتقديم فائدة شريفة ومعنى جليلا لا سبيل له مع التأخير"(١).

وذكر أبو السعود في تفسيره أنَّ هذا:" تذكيرٌ لنعمةٍ من نعمه تعالى مُنَبِّئةٍ عن كمالِ قدرتِه تعالى وسَعة رحمتِه، أي أنزل من السحاب، أو من سَمْتِ السماء ماءً خاصًا هو المطر، وقوله:(فأخرج به) التفت إلى التكلم إظهارًا لكمال العناية بشأن ما أُنزل الماءُ لأجله..." (٢).

وجاءت الآية الكريمة واردة في سياق جملة خبرية معطوفة، وقوله: (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ) يعني من السحاب، والإنزال هو: إفعال من النُّزول، وهو فى الأَصل انحطاط من عُلُوّ، يقال: نَزَل عن دابّته، ونزل في مكان كذا: حَطَّ رحلَه فيه، وأَنزل غيره، وأَنزل الله نِعمه على الخَلْق: أَعطاها إيّاهم، وذلك إمّا بإنزال الشيءِ نفسه، كإنزال القرآن، وإمّا بإنزال أَسبابه والهداية إليه، كإنزال الحديد واللّباس"(٣).

ومما جاء مع الفعل (أنزل) مسندًا إلى ضمير الجلالة قوله تَعَالَىٰ:﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى- تحقيق: محمود شاكر- ١/ ٢٨٦- دار المدني- السعودية-ط٣- ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

(٢) تفسير أبي السعود- ٣/ ١٦٦- دار إحياء التراث العربي – بيروت- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(٣) بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادى- تحقيق: محمد على النجار- ٢/ ٤٩- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- ط١- ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾[١] جاءت الآية في سياق جملة خبرية معطوفة، حيث تشير إلى إنعام الله ﷻ وتفضله على الناس .

ويُلاحظ أن الفعل (أنزل) قد أسند إلى الضمير (نا) الذي يعود على الله ﷻ، وهو إسناد تشريف، وقد حقق معنى البركة والفيض في هذا الماء النازل، وهناك أيضًا دلالة الالتفات التي في الآية الكريمة، وهي الالتفات من الغيبة إلى المتكلم، فإن الأفعال التي قبل فعل الإنزال، وهي: (خلق، وألقى، وبثَّ) كلها جاءت مسندة إلى ضمير الغائب، ثم انتقل إلى المتكلم في قوله: (وأنزلنا) وقد حققت ظاهرة الالتفات هنا معنى دلاليًا كبيرًا يشير إلى اختصاص فعل الإنزال بذات الله ﷻ، والتنبيه على أن إنبات الأرض وإخراج الثمر لا يقدر عليه أحد سواه، كما هو ظاهر من دلالة الفعل (أنبتنا)، فزاد في معنى السعة والكثرة ، وقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ يشمل كل زوج وكل نوع من أزواج النبات وأنواعه، وفيه فائدة عظيمة في استمرار حياة الإنسان والحيوان، وذلك لإتمام المنة من الله ﷻ حتى يقر الإنسان بالتوحيد تمام الإقرار .

وقال ابن عاشور في هذا الموضع:" وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ مَاءً﴾، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ﴾[٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾[٣].

وَالِالْتِفَاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ فِي قَوْلِهِ: (وَأَنْزَلْنا) لِلِاهْتِمَامِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ دَوَرَانًا عِنْدَ النَّاسِ، وَضَمِيرُ فِيها عَائِدٌ إِلَى الْأَرْضِ"[٤].

(١) سورة لقمان: ١٠.
(٢) سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ١٦٤.
(٣) سُورَةِ الرَّعْدِ:١٧.
(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور- ٢١/ ١٤٦.

ومما جاء مع الفعل الماضي (نزل) بصيغة المضعف (نزّل) قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [1] الآية الكريمة جاءت في سياق إقامة الحجة على المشركين من خلال تقرير حالة نزول الماء من السماء، وهي في سياق جملة إنشائية طلبية، والسماء في الآية يعني بها السحاب، وقد أعطت المعاني في الآية الكريمة دلالات واضحة على حمق المشركين وجهلهم وسفاهة عقولهم، عندما أقرّوا بأن الله ﷻ هو الذي يُنزل عليهم الماء، ويُحيي الأرض بإنباتها.

(١) سورة العنكبوت: ٦٣.

ثالثاً: دلالة السماء بمعنى المطر:

وردت السماء بمعنى المطر في قوله تَعَالَىٰ:﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا ﴾ (١)، وردت الآية في سياق التفكر والاعتبار بما حَلَّ بالأمم السابقة التي جحدت آيات ربها رغم إنعامه وتفضله عليهم، والخطاب موجه إلى أهل مكة خاصة والكفار بعامة، والشاهد في الآية قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ فالسماء هنا يعني بها المطر، قال الطبري:" وَمَعْنَى قَوْلِهِ: (وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا): الْمَطَرَ، وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: مِدْرَارًا: غَزِيرَةً دَائِمَةً"(٢).

وقال ابن عاشور:" وَالْمِدْرَارُ صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ، مِثْل مِنْحَارٍ لِكَثِيرِ النَّحْرِ لِلْأَضْيَافِ، وَوَصْفُ الْمَطَرِ بِالْمِدْرَارِ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ، وَإِنَّمَا الْمِدْرَارُ سَحَابَةٌ، وَهَذِهِ الصِّيغَةُ يَسْتَوِي فِيهَا الْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ، وَالْمُرَادُ إِرْسَالُ الْمَطَرِ فِي أَوْقَاتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ بِحَيْثُ كَانَ لَا يُخَلِّفُهُمْ فِي مَوَاسِمِ نُزُولِهِ، وَمِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ كَثْرَةُ الْأَنْهَارِ وَالْأَوْدِيَةِ بِكَثْرَةِ انْفِجَارِ الْعُيُونِ مِنْ سِعَةِ رِيِّ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ"(٣).

قال أبو السعود: "(وَأَرْسَلْنَا السماء) أي: المطرَ، أو السحاب، أو المظلة؛ لأنها مبدأ المطر (عَلَيْهِمْ) متعلق بأرسلنا، (مدْرَارًا) أي مِغزارًا حال من السماء"(٤).

ودلالة استخدام التعبير القرآني للحرف (على) مع (الإرسال) دون استعمال الحرف

---

(١) سورة الأنعام: ٦.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ١٥٧.

(٣) التحرير والتنوير: ٧/ ١٣٦.

(٤) تفسير أبي السعود ٣/ ١١١.

(إلى) وهو ما يُستعمل غالبًا مع الإرسال[1]، حيث يفيد "انتهاء الغاية في الزمان والمكان"[2]، وقد استخدم الحرف (على) هنا لما فيه من معنى العلو والارتفاع، وفي ذلك دلالة على أن المطر ينزل في قيعانهم وأراضيهم، لِمَا فيه من الشمول والسعة، فالعبارة القرآنية تتصرف بحروف الجر تصرفًا يدلُّ على أداء المعاني والأفكار.

رابعاً: دلالة السماء على سماء الجنة والنار:

ومما جاء في ذلك قوله تَعَالَىٰ:﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾[3] فقد جاءت الآيتان الكريمتان في سياق جملة خبرية تبين الحالة التي ينتهي إليها المشركون والكفار في جهنم، والمعنى: أنهم دائمون فيها ما دامت سموات النار وأرضها، وليس المراد السماء والأرض المعروفتين؛ لأنهما سوف تتغيران كما قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾[4]، وجاءت السموات هنا بصيغة الجمع دليلًا على عِظمها، قال القرطبي:" وَاخْتُلِفَ فِي تَأْوِيلِ هَذَا، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمُ الضَّحَّاكُ: الْمَعْنَى: مَا دامت سمواتُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَأَرْضُهُمَا، وَالسَّمَاءُ كُلُّ مَا عَلَاكَ فَأَظَلَّكَ، وَالْأَرْضُ مَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ قَدَمُكَ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ الْمَعْهُودَتَيْنِ فِي الدُّنْيَا، وَأَجْرَى ذَلِكَ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي الْإِخْبَارِ عَنْ دَوَامِ الشَّيْءِ وَتَأْبِيدِهِ، كَقَوْلِهِمْ: لَا آتِيكَ مَا جَنَّ لَيْلٌ، أَوْ سَالَ سَيْلٌ، وَمَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَمَا نَاحَ الْحَمَامُ، وما دامت

---

(١) من ذلك قوله تعالى في سورة يس: ١٤ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما ﴾ .

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني للمرادى- تحقيق: د فخر الدين قباوة-ص٣٨٥-دار الكتب العلمية- بيروت -ط١- ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

(٣) سورة هود: ١٠٦-١٠٧.

(٤) سورة إبراهيم: ٤٨.

السموات وَالْأَرْضُ، وَنَحْوُ هَذَا مِمَّا يُرِيدُونَ بِهِ طُولًا مِنْ غَيْرِ نِهَايَةٍ، فَأَفْهَمَهُمُ اللَّهُ تَخْلِيدَ الْكَفَرَةِ بذلك"(١).

وقال الطبري:" يَعِني بِقَوْلِهِ: (مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ): أَبَدًا؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَصِفَ الشَّيْءَ بِالدَّوَامِ أَبَدًا، قَالَتْ: هَذَا دَائِمٌ دَوَام السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ بِمَعْنَى أَنَّهُ دَائِمٌ أَبَدًا، وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ: هُوَ بَاقٍ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَمَا سَمَرَ لَنَا سَمِيرٌ، وَمَا لَأْلَأَتِ الْعُفْرُ بِأَذْنَابِهَا يَعْنُونَ بِذَلِكَ كُلِّهِ أَبَدًا، فَخَاطَبَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِمَا يَتَعَارَفُونَ بِهِ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ) وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ: خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَكَانَ ابْنُ زَيْدٍ يَقُولُ فِي ذَلِكَ بِنَحْوِ مَا قُلْنَا فِيهِ"(٢).

وذكر الزجاجى أن:" (فِي) مَعْنَاهُ الْوِعَاء الظَّرْفِيَّة، وَقد تَأتي مَكَان (على)، كَقَوْلِه تَعَالَى: (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخل)، أَي: على جذوع النخل"(٣).

والدلالة هنا تظهر في معنى الظرفية، حيث حقق معنًى دلاليًّا تمثَّلَ في بيان دوام عذاب الكفار واستمراره، أما الاستثناء في قوله: (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) ففيه إشارة إلى أن هناك أنواعًا من العذاب غير النار، قال الزمخشري:" فإن قلت: فما معنى الاستثناء؟ قلت: هو استثناءٌ من الخلود في عذاب النار، ومن الخلود في نعيم الجنة: وذلك أن أهل النار لا يُخلَّدون في عذاب النار وحده، بل يُعذَّبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار، وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم وخسؤه لهم وإهانته إياهم، وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعًا منهم، وهو رضوان الله، كما قال سبحانه: (وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)، ولهم ما يتفضل الله به عليهم

---

(١) تفسير القرطبي ٩/ ٩٩.

(٢) ينظر: تفسير الطبري ١٢/ ٥٧٨، وتفسير ابن كثير ٤/ ٣٥١.

(٣) حروف المعاني والصفات للزجاجي=تحقيق: علي توفيق الحمد- ص١٢- مؤسسة الرسالة – بيروت-ط١- ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

سوى ثواب الجنة مما لا يَعرف كنهه إلا هو، فهو المراد بالاستثناء، والدليل عليه قوله: (عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)، ومعنى قوله في مقابلته: (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيد)، أنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب، كما يُعطى أهل الجنة عطاءَه الذي لا انقطاع له، فتأمّله، فإنّ القرآن يُفسر بعضه بعضًا"[1].

وقد دلَّ التعبير القرآني في التحدث عن أهل النار على ملمحٍ جديدٍ، وهو قوله: (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)؛ ليدل على أن هناك زيادة أخرى في العذاب فوق ما يَلقون، كما دلَّت عليه صيغة المبالغة، ولم يوصلها كما فعل مع أهل الجنة، وقد أعطى ذلك معنًى دلاليًّا تَمثَّل في عدم التأبيد في بقاء الجميع في النار، وذلك حسب إرادته ﷻ.

(١) ينظر: تفسير الزمخشري ٢/ ٤٣٠.

خامساً: دلالة السماء ذاتها، الوجه المقابل للأرض[١]:

وقد جاءت لفظة (السماء) للدلالة على الوجه المقابل للأرض في خمسةٍ وثمانين موضعًا، وردت في سياقاتٍ متنوعةٍ، دلَّت عن: وحدانية الله في واحدٍ وعشرين موضعًا، ودلَّت عن: الرحمة والعناية في خمسة عشر موضعًا، ودلَّت عن الحديث عن يوم القيامة في اثنتي عشر موضعًا، وعن: العقاب والعذاب في أحد عشر موضعًا، وعن: إحاطة الله بكل شيءٍ، وسعة علمه في عشرة مواضع، وعن: التهديد والوعيد في تسعة مواضع، وعن: التحدي في سبعة مواضع.

-فدلالة التوحيد من القضايا المهمة التي عالجها القرآن، وقد استخدم التعبير القرآني لفظ السماء في الدلالة على وحدانية الله ﷻ، وهذا واضحٌ في قوله تَعَالَىٰ:﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾[٢]، وهذه الطير إحدى عجائب خلق الله ﷻ، قال الطبري:" إِنَّ فِي تَسْخِيرِ اللَّهِ الطَّيْرَ، وَتَمْكِينهُ لَهَا الطَّيَرَانَ فِي جَوِّ السَّمَاءِ، لَعَلَامَاتٌ وَدَلَالَاتٌ عَلَى أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا حَظَّ لِلْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ فِي الْأُلُوهَةِ"[٣].

وقد دلَّت الآية على سياق جملة إنشائية استفهامية، حيث خرج الاستفهام هنا إلى الإنكار، قال ابن عاشور:" مَوْقِعُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَوْقِعُ التَّعْلِيلِ وَالتَّدْلِيلِ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَةِ اللَّهِ وَبَدِيعِ صُنْعِهِ وَعَلَى لُطْفِهِ بِالْمَخْلُوقَاتِ، فَإِنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ مَوْهِبَةَ الْعَقْلِ وَالْحَوَاسِّ الَّتِي بِهَا تَحْصِيلُ الْمَنَافِعِ، وَدَفْعُ الْأَضْرَارِ نَبَّهَ النَّاسَ إِلَى لُطْفٍ يُشَاهِدُونَهُ أَجْلَى مُشَاهَدَة

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم- ١/٥٩٨- مجمع اللغة العربية بالقاهرة- ط٢- ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(٢) سورة النحل: ٧٩.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٣١٦.

لِأَضْعَفِ الْحَيَوَانِ، بِأَنَّ تَسْخِيرَ الْجَوِّ لِلطَّيْرِ وَخَلْقِهَا صَالِحَةً لِأَنْ تُرَفْرِفَ فِيهِ بِدُونِ تَعْلِيمٍ هُوَ لُطْفٌ بِهَا اقْتَضَاهُ ضَعْفُ بِنْيَاتِهَا، إِذْ كَانَتْ عَادِمَةً وَسَائِلَ الدِّفَاعِ عَنْ حَيَاتِهَا، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهَا سُرْعَةَ الِانْتِقَالِ مَعَ الِابْتِعَادِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا يَعْدُو عَلَيْهَا مِنَ الْبَشَرِ وَالدَّوَابِّ.

فَلِأَجْلِ هَذَا الْمَوْقِعِ لَمْ تُعْطَفِ الْجُمْلَةُ عَلَى الَّتِي قَبْلَهَا لِأَنَّهَا لَيْسَ فِي مَضْمُونِهَا نِعْمَةٌ عَلَى الْبَشَرِ، وَلَكِنَّهَا آيَةٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ، بِخِلَافِ نَظِيرَتِهَا فِي سُورَةِ الْمُلْكِ: ١٩، (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ) فَإِنَّهَا عُطِفَتْ عَلَى آيَاتٍ دَالَّةٍ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِذَلِكَ الْمَعْنَى عُقِّبَتْ هَذِهِ وَحْدَهَا بِجُمْلَةِ: (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

وَالتَّسْخِيرُ: التَّذْلِيلُ لِلْعَمَلِ، وَالْجَوُّ: الْفَضَاءُ الَّذِي بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَإِضَافَتُهُ إِلَى السَّمَاءِ؛ لِأَنَّهُ يَبْدُو مُتَّصِلًا بِالْقُبَّةِ الزَّرْقَاءِ فِي مَا يَخَالُ النَّاظِرُ"(١).

-ودلالة الرحمة تتضح في آياتٍ كثيرة تتحدث عن رحمته ﷻ بخلقه، ومما ورد فيه ذكر السماء قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ ﴾(٢) الآيتان الكريمتان في سياق جملة خبرية تشير إلى إحدى نعم الله العظيمة على الإنسان بأن جعل في السماء نجومًا وكواكبَ، وأودع فيها منافع للإنسان، قال القرطبي:" قَالَ قَتَادَةُ: خُلِقَتِ النُّجُومُ ثَلَاثًا، رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَنُورًا يُهْتَدَى بِهَا، وَزِينَةً لِسَمَاءِ الدُّنْيَا"(٣).

وقد وصفت السماء هنا بأنها السماء الدنيا، وهذه إشارة إلى أن المقصود بها السماء الأولى، وقد أسند الفعل (زَيَّن) إلى الضمير (نا) الذي يعود إلى الله ﷻ للاهتمام بالإخبار عن نفسه، قال ابن عاشور:" هَذِهِ الْجُمْلَةُ تتنزل مِنْ جُمْلَةِ (رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما)، مَنْزِلَةَ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ، وَاقْتَصَرَ

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٣٤.
(٢) سورة الصافات: ٦-٧.
(٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٦٤.

عَلَى رُبُوبِيَّةِ السَّمَاوَاتِ؛ لِأَنَّ ثُبُوتَهَا يَقْتَضِي رُبُوبِيَّةَ الْأَرْضِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى، وَأَدْمَجَ فِيهَا مِنَّةً عَلَى النَّاسِ بِأَنْ جَعَلَ لَهُمْ فِي السَّمَاءِ زِينَةَ الْكَوَاكِبِ تَرُوقُ أَنْظَارُهُمْ، فَإِنَّ مَحَاسِنَ الْمَنَاظِرِ لَذَّةٌ لِلنَّاظِرِينَ، وَمِنَّةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ، بِأَنْ جَعَلَ فِي تِلْكَ الْكَوَاكِبِ حِفْظًا مِنْ تَلَقِّي الشَّيَاطِينِ لِلسَّمْعِ فِيمَا قَضَى اللَّهُ أمره فِي الْعَالم الْعُلْوِيّ؛ لِقَطْعِ سَبِيلِ اطِّلَاعِ الْكُهَّانِ عَلَى بَعْضِ مَا سَيَحْدُثُ فِي الْأَرْضِ، فَلَا يَفْتِنُوا النَّاسَ فِي الْإِسْلَامِ كَمَا فَتَنُوهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَلِيَكُونَ ذَلِكَ تَشْرِيفًا للنبي ﷺ بِأَنْ قُطِعَتِ الْكَهَانَةُ عِنْدَ إِرْسَالِهِ، وَلِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ فِيهَا مَنْفَعَةً عَظِيمَةً دِينِيَّةً، وَهِيَ قَطْعُ دَابِرِ الشَّكِّ فِي الْوَحْيِ، كَمَا أَنَّ فِيهَا مَنْفَعَةً دُنْيَوِيَّةً، وَهِيَ لِلزِّينَةِ وَالِاهْتِدَاءِ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ"(١).

– ودلالةُ الحديث عن يوم الحساب كثيرة في القرآن الكريم، وقد ذُكِرت السماء في بعضها، ومن ذلك قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢)، جاءت الآيةُ في سياق جملة خبرية تشير إلى مشهد من مشاهد يوم القيامة، وهو تشقّق السماء وتصدعها، قال ابن عاشور:" وَتَشَقُّقُ السَّمَاءِ حَالَةٌ عَجِيبَةٌ تَظْهَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَعْنَاهُ: زَوَالُ الْحَوَاجِزِ وَالْحُدُودِ الَّتِي كَانَتْ تَمْنَعُ الْمَلَائِكَةَ مِنْ مُبَارَحَةِ سَمَاوَاتِهِمْ إِلَّا مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ بِذَلِكَ، فَاللَّامُ فِي الْمَلَائِكَةِ لِلِاسْتِغْرَاقِ، أَيْ بَيْنَ جَمْعِ الْمَلَائِكَةِ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ أَنْ يُقَالَ: يَوْمَ تُفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاء، وَالْغَمَامُ: السَّحَابُ الرَّقِيقُ، وَهُوَ مَا يَغْشَى مَكَانَ الْحِسَابِ"(٣).

وقد استَعمل التعبير القرآني الفعل (تشقَّق) لدلالته على الحركة والنشاط، وهو من الألفاظ التي اختيرت لتصوير مشاهد يوم القيامة وأحداثه، من أجل تحقيق الاستجابة

---

(١)التحرير والتنوير ٢٣/ ٨٧.

(٢) سورة الفرقان: ٢٥.

(٣)التحرير والتنوير١٩/ ٩، ١٠.

النفسية في ألفاظ القرآن الكريم، قال الزمخشري:" ولـمَّا كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها، جعل الغمام كأنه الذي تشقق به السماء"(١).

-ودلالة العقاب والهلاك كثيرًا ما يتحدث القرآن عن العذاب الذي نزل بالأقوام السابقة لكفرهم وضلالهم، ومن ذلك قوله تَعَالَىٰ:﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾(٢)جاءت الآية الكريمة في سياق جملة خبرية تشير إلى العذاب الذي نزل على بني إسرائيل بعد عصيانهم وتكبّرهم واستهزائهم بأمر الله ﷻ في دخول القرية، فتحولت هذه السماء بقدرة الله ﷻ إلى مصدر عذابٍ تنفيذًا لأمر الله ﷻ، والرجز في لغة العرب يعني: العذاب، قال ابن كثير:" وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كُلُّ شَيْءٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ "الرِّجْز" يَعْنِي بِهِ الْعَذَابَ، وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَأَبِي مَالِكٍ، وَالسُّدِّيِّ، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ، أَنَّهُ الْعَذَابُ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: الرِّجْزُ الْغَضَبُ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: الرِّجْزُ: إِمَّا الطَّاعُونُ، وَإِمَّا الْبَرْدُ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ الطَّاعُونُ"(٣).

- ودلالة إحاطة الله ﷻ بكل شيء وسعة علمه ﷻ، وقد وردت آيات كثيرة في ذلك، منها قوله تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ﴾(٤)جاءت الآية الكريمة في سياق جملة خبرية، وهي من ضمن ما نزل في نصارى نجران الذي حاججوا النبي محمدًا ﷺ في عيسى، وأن الله مُطَّلعٌ عليهم، قال القرطبي:" هَذَا خَبَرٌ عَنْ عِلْمِهِ تَعَالَى بِالْأَشْيَاءِ عَلَى التَّفْصِيلِ، وَمِثْلُهُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ،

(١) تفسير الزمخشري٣/٢٧٥.

(٢) سورة البقرة: ٥٩.

(٣) ينظر: تفسير الطبري١/ ٧٣١، وتفسير ابن كثير ١/ ٢٧٧

(٤) سورة آل عمران: ٥.

فَهُوَ الْعَالِمُ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَا يَكُونُ، فَكَيْفَ يَكُونُ عِيسَى إِلَهًا أَوِ ابْنَ إِلَهٍ وَهُوَ تَخْفَى عَلَيْهِ الأشياء!"[١].

قال ابن عاشور:" وَقَوْلُهُ: فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ قُصِدَ مِنْهُ عُمُومُ أَمْكِنَةِ الْأَشْيَاءِ، فَالْمُرَادُ مِنَ الْأَرْضِ الْكُرَةُ الْأَرْضِيَّةُ: بِمَا فِيهَا مِنْ بِحَارٍ، وَالْمُرَادُ بالسماء جنس السَّمَوَات: وَهِيَ الْعَوَالِمُ الْمُتَبَاعِدَةُ عَنِ الْأَرْضِ، وَابْتُدِئَ فِي الذِّكْرِ بِالْأَرْضِ؛ لِيَتَسَنَّى التَّدَرُّجُ فِي الْعَطْفِ إِلَى الْأَبْعَدِ فِي الْحُكْمِ؛ لِأَنَّ أَشْيَاءَ الْأَرْضِ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِنْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، أَمَّا أَشْيَاءُ السَّمَاءِ فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ بَعْضَهَا فَضْلًا عَنْ علم جَمِيعِهَا"[٢].

- <u>ودلالة التحدي</u> في قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[٣] جاءت الآية الكريمة في سياق جملة إنشائية طلبية تحققت بفعل الأمر (أمطر) الذي خرج معناه إلى الدعاء، وقد أسند القول هنا إلى جميع المشركين بعبارة (فأمطر علينا) والقائل واحد؛ ذلك لأنهم كانوا في الكفر والعدوان سواء.

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما فائدة قوله: (مِنَ السَّماءِ)؟ والأمطار لا تكون إلا منها، قلت: كأنه يريد أن يقال: فأمطر علينا السجيل، وهي الحجارة المسوّمة للعذاب، فوضع حِجارَةً مِنَ السَّماءِ موضع السجيل، يعنى أن أمطار السجيل بعض العذاب الأليم، فعذبنا به أو بنوع آخر من أنواعه"[٤].

---

(١) تفسير القرطبي ٤/ ٧.

(٢) التحرير والتنوير٣/ ١٥١.

(٣) سورة الأنفال: ٣٢.

(٤) تفسير الزمخشري ٢/ ٢١٧.

ثانياً: الشمس والقمر:

إن الشمس والقمر من الآيات الكونية التي يجري هلاكها يوم القيامة، كما قال الله تعالى:﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩﴾[1]، يذهب ضوء القمر وتُظلِم الشمس وتُجمعان معًا ويُرمى بهما، ونظرًا لأهميتهما للكون أقسم الله بهما، قال ابن القيم:" ولم يُقْسِم في كتابه بشيءٍ من مخلوقاته أكثر من السَّماء والنُّجوم والشمس والقمر، وهو سبحانه يقسمُ بما يقسمُ به من مخلوقاته لتضمُّنه الآياتِ والعجائبَ الدالَّة عليه، وكلما كان أعظم آيةً وأبلغَ في الدَّلالة كان إقسامُه به أكثرَ من غيره"[2].

قال د النابلسي:" سُئِلَ رئيسُ أكبرِ وكالةِ فضاءٍ في العالَم سؤالًا عن السديمِ، وعن كُتَلِه المتوهِّجةِ الحمراءِ والبيضاءِ والسوداءِ، فقال هذا العالِمُ: الشموسُ المشتعلةُ أنواعٌ ثلاثةٌ؛ شموسٌ مشتعلةٌ باللونِ الأحمرِ كشمسنا، وهي في منتصفِ عمرِها، وقد مَضى على اتِّقادها خمسون مليارَ سنةٍ، وستبقى خمسين مليارَ سنةٍ أخرى، إنها في منتصف عمرها، وهناك شموسٌ بعْدَ أنْ تمرَّ بمرحلةِ الاحمرارِ يزدادُ حجمُها زيادةً كبيرةً، ثم تنكمشُ انكماشًا عظيمًا فجأةً، بواقعٍ من مئة إلى واحدٍ مِن حجمِها الأصلي، وعندئذٍ تصبحُ بيضاءَ اللَّونِ، وتُشعُّ نورًا أبيضَ، ولكنه أشدُّ حرارةً بكثيرٍ من اللونِ الأحمرِ، فالشمسُ التي يتغيَّر لونُها من اللونِ الأحمرِ إلى اللونِ الأبيضِ حرارتُها أشدُّ بكثيرٍ مِن حرارةِ الحمراءِ.

---

(١) سورة القيامة: ٧-٩.

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم-تحقيق: عبد الرحمن بن حسن-٢/ ٥٦٢-عالم الفوائد-مكة – ط١-١٤٣٢هـ.

وبعْدَ ذلك تمرُّ هذه الشمسُ في مرحلةٍ ثالثة، هي مرحلةُ التكدُّسِ، كما يتكدَّسُ المترُ المكعبُ مِنَ الحديدِ بحجمِ ذرةٍ، لا تُرى بالعينِ، ولا بالْمِجْهَرِ، ومعنى ذلك أنّ كثافةَ هذه الشمسِ تصبحُ عالية جدًا، ويصبحُ جذبُها شديدًا جدًا، لدرجةِ أنّ النورَ لا يسطعُ منها، ولا يخرجُ، سمّاها العلماءُ الآن الثقوبَ السوداءَ، هذه لها قوةُ جذبٍ مخيفةٌ، فلو أن الأرض دخلت في دائرة جذبها لأصبحت بحجمِ بيضةٍ مع وزنِها نفسِه..

تصوَّر! الأرضَ بقاراتها الخمسِ، والبحار التي تكون ٧٢% من مساحة الأرض، هذه الكتلةُ الضخمةُ كلُّها لو جَذَبَها ثُقبٌ أسودُ لأصبحتْ بحجمِ البيضةِ"[١]، وقد ورد لفظ الشمس في القرآن في (٣٢) موضعًا[٢].

أمَّا القمر فكلّنا يعلمُ أنَّه يدورُ حولَ الأرضِ في كلّ شهرٍ قمريٍّ مرَّةً واحدةً، وأنَّه يدورُ حولَ نفسِه في وقتٍ مساوٍ تمامًا لِدَورتِه حولَ الأرضِ، لذلك لا نرى مِن القمرِ إلا وجهًا واحدًا طوالَ الحياة، لأنّه يدورُ حولَ الأرضِ، وحولَ نفْسِه في وقتٍ واحدٍ، ويستكملُ دورتَهُ حولَ نفسِه في تسعةٍ وعشرين يومًا، وثماني ساعات، ويستكملُ دورتَهُ حول الأرضِ في تسعةٍ وعشرين يومًا وثماني ساعات.

لكنّ الشيءَ الذي يَلفِتُ النّظرَ أنَّ القمرَ يقطعُ في كلّ يومٍ مِن دائرةِ سيْرِه مِن فَلَكِهِ حولَ الأرض ثلاثَ عشرةَ درجةً، ويتأخَّرُ في شُروقِه عن اليومِ السابقِ تسعًا وأربعين دقيقةً كلَّ يومٍ، ولولا هذا التأخُّرُ لبدَا القمرُ بَدْرًا طوالَ الحياةِ، ولكنَّ تأخُّرَه تسعًا وأربعين دقيقةً عن شُروقه السابقِ كلّ يومٍ هو الذي يُرِينا القمرَ في مراتبَ، مِن هلالٍ، إلى رُبْع، إلى بدْر، إلى عُرجونٍ، إلى غيابٍ كاملٍ، لذلك يقول ربّنا سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى

---

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة-٢/ ٣٠ - محمد راتب النابلسي- دار المكتبي - سورية - دمشق - ط٢- ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٤٩١ - ٤٩٢.

جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ ...﴿٥﴾[1] مَن الذي خلَقَ وأبْدَعَ؟ إنه الله رب العالَمين.

إنّ كتلةَ القمرِ جزءٌ من ثمانين جزءًا مِن كتلةِ الأرضِ، وتُعادِلُ الجاذبيةُ على سطحِ القمرِ سُدْسَ جاذبيّةِ الأرضِ، فالإنسانُ الذي يزنُ على الأرضِ ستّين كيلو غرامًا يزنُ على القمرِ عشرةَ كيلو غرامات، لذلك الجاذبيّةُ فيه أَقَلُّ"[2]، ولما كان القرآن كثيرًا ما يقرن بين الشمس والقمر كان الاستدلال بالقمر – في مواضع كثيرة – هو نفس الاستدلال بالشمس.

أولاً: دلالة الشمس على وجود الله:

أخبر الله ﷻ عن محاجَّة سيدنا إبراهيم عليه السلام للنمرود في وجود الله، إذ كان ينكر وجود الله ﷻ، فاستدل سيدنا إبراهيم عليه السلام على وجود الله، وأنه المالك المتصرف المستحق للعبادة وحده، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾[3].

قال ابن عاشور:" جَرَى هَذَا الْكَلَامُ مَجْرَى الْحُجَّةِ عَلَى مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ الْمَاضِيَةِ أَوِ الْمِثَالِ لَهَا..، وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا تَمْثِيلُ حَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي مُجَادَلَتِهِمُ النَّبِيءَ ﷺ فِي الْبَعْثِ بِحَالِ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ، وَالِاسْتِفْهَامُ فِي (أَلَمْ تَرَ) مَجَازِيٌّ مُتَضَمِّنٌ مَعْنَى التَّعْجِيبِ، وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ مَسُوقٌ لِإِثْبَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِبْطَالِ إِلَاهِيَّةِ غَيْرِهِ لِانْفِرَادِهِ بِالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ، وَانْفِرَادِهِ بِخَلْقِ الْعَوَالِمِ الْمَشْهُودَةِ لِلنَّاسِ، وَمَعْنَى حَاجَّ خَاصَمَ، وَهُوَ فِعْلٌ جَاءَ عَلَى زِنَةِ الْمُفَاعَلَةِ، وَلَا يُعرفُ لحاجّ فِي الِاسْتِعْمَالِ فِعْلٌ مُجَرَّدٌ دَالٌّ عَلَى

---

(١) سورة يونس: ٥.

(٢) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ٢/ ٢٤.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٨

وُقُوعِ الْخِصَامِ، وَلَا تُعْرَفُ الْمَادَّةُ الَّتِي اشْتُقَّ مِنْهَا، وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ الْحُجَّةَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْبُرْهَانُ الْمُصَدِّقُ لِلدَّعْوَى مَعَ أَنَّ حَاجَّ لَا يُسْتَعْمَلُ غَالِبًا إِلَّا فِي مَعْنَى الْمُخَاصَمَةِ"(١).

قال ابن القيم:" ثمَّ تأمَّل ما في ضمن هذه المناظرة من حُسْنِ الاستدلال بأفعال الربِّ المشهودة المحسوسة، التي تستلزمُ وجودَه وكمال قدرته ومشيئته وعلمه ووحدانيته، من الإحياء والإماتة المشهودَين اللذَين لا يقدرُ عليهما إلا الله وحده، وإتيانه تعالى بالشمس من المشرق، ولا يقدرُ أحدٌ سواه على ذلك، وهذا برهانٌ لا يقبلُ المعارضةَ بوجه.

فأين الانتقالُ في هذا الاستدلال والمناظرة؟ ! بل هذا مِن أحسن ما يكونُ من المناظرة، والدليلُ الثاني مكمِّلٌ لمعنى الدليل الأول، ومبيِّنٌ له ومقرِّر؛ لتضمُّن الدليلين أفعالَ الربِّ الدالَّة عليه وعلى وحدانيته وانفراده بالربوبية والإلهية، لا تقدرُ أنت ولا غيرُ الله على مثلها.

وفي هذه المناظرة نكتةٌ لطيفةٌ جدًّا، وهي أنَّ شركَ العالَم إنما هو مستندٌ إلى عبادة الكواكب والقبور، ثمَّ صُوِّرت الأصنامُ على صُوَرها.

فتضمَّن الدليلان اللذان استدلَّ بهما إبراهيمُ إبطالَ إلهيَّة تلك جملةً، بأنَّ الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يصلحُ الحيُّ الذي يموت للإلهية، لا في حال حياته ولا بعد موته؛ فإنَّ له ربًّا قادرًا قاهرًا متصرِّفًا فيه أحياهُ وأماته، ومَن كان كذلك فكيف يكونُ إلهًا حتى يتَّخذ الصَّنمُ على صُورته ويُعْبَد من دونه؟ !

---

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٣١.

وكذلك الكواكبُ أظهرُها وأكبرُها للحِسّ هذه الشمس، وهي مربوبةٌ مدبَّرةٌ مسخَّرةٌ لا تصرُّفَ لها في نفسها بوجهٍ ما، بل ربُّها وخالقُها ﷻ يأتي بها من مشرقها، فتنقادُ لأمره ومشيئته، فهي مربوبةٌ مسخَّرةٌ مدبَّرةٌ، لا إلهًا يُعْبَدُ من دون الله"(١).

ثانياً: دلالة الشمس على القَسَم:

أقسم الله ﷻ بالشمس ومشرقها في مواضع من كتابه على أنه تعالى لا إله إلا هو، وعلى كمال قدرته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ ﴾(٢)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ ﴾(٣)، وقال تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ ﴾(٤) قال القرطبي: " فَالْيَمِينُ وَالْقَسَمُ حَاصِلٌ بِهِ سُبْحَانَهُ لَا بِالْمَخْلُوقِ، قال مجاهد: وَضُحاها أي ضوئها وَإِشْرَاقُهَا، وَهُوَ قَسَمٌ ثَانٍ، وَأَضَافَ الضُّحَى إِلَى الشَّمْسِ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِارْتِفَاعِ الشَّمْس، وَقَالَ قَتَادَةُ: بَهَاؤُهَا، السُّدِّيُّ: حَرُّهَا، وَرَوَى الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَضُحاها قَالَ: جَعَلَ فِيهَا الضَّوْءَ وَجَعَلَهَا حَارَّةً، وَقَالَ الْيَزِيدِيُّ: هُوَ انْبِسَاطُهَا، وَقِيلَ: مَا ظَهَرَ بِهَا مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ، فَيَكُونُ القسم بها وبمخلوقات الأرض"(٥).

قال ابن عاشور:" الْقَسَمُ لِتَأْكِيدِ الْخَبَرِ، وَالْمَقْصُودُ بِالتَّأْكِيدِ هُوَ مَا فِي سَوْقِ الْخَبَرِ مِنَ التَّعْرِيضِ بِالتَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ بِالِاسْتِئْصَالِ، وَالْوَاوَاتُ الْوَاقِعَةُ بَعْدَ الْفَوَاصِلِ وَاوَاتُ قَسَمٍ،

(١) مفتاح دار السعادة ٣/ ١٤٠٠.
(٢) سورة الصافات:٥.
(٣) سورة المعارج: ٤٠.
(٤) سورة الشمس: ١.
(٥) تفسير القرطبي ١٠/٤١، ٢٠/ ٧٢.

وَكُلٌّ مِنَ الشَّمْسِ، وَالْقَمَرِ وَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَنَفْسِ الْإِنْسَانِ، مِنْ أَعْظَمِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ ذَاتًا وَمَعْنًى الدَّالَّةِ عَلَى بَدِيعِ حِكْمَتِهِ وَقَوِيِّ قُدْرَتِهِ"(١).

وقال الطبري:" وقوله (وَرَبُّ الْمَشَارِقِ) يقول: ومدبر مشارق الشمس في الشتاء والصيف ومغاربها، والقيّم على ذلك ومصلحه، وترك ذكر المغارب لدلالة الكلام عليه، واستغني بذكر المشارق من ذكرها، إذ كان معلومًا أن معها المغارب"(٢).

ودلالة جمع المشارق، ذكر ابن عاشور أنَّ:" تَخْصِيص الْمَشارِقِ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؛ لِأَنَّهَا أَحْوَالٌ مَشْهُودَةٌ كُلَّ يَوْمٍ، وَجَمْعُ الْمَشارِقِ بِاعْتِبَارِ اخْتِلَافِ مَطْلَعِ الشَّمْسِ فِي أَيَّامِ نِصْفِ سَنَةِ دَوْرَتِهَا وَهِيَ السَّنَةُ الشَّمْسِيَّةُ وَهِيَ مِائَةٌ وَثَمَانُونَ شَرْقًا بِاعْتِبَارِ أَطْوَلِ نَهَارٍ فِي السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ وَأَقْصَرِهِ، مُكَرَّرَةً مَرَّتَيْنِ فِي السَّنَةِ ابْتِدَاءً مِنَ الرُّجُوعِ الشِّتْوِيِّ إِلَى الرُّجُوعِ الْخَرِيفِيِّ، وَهِيَ مَطَالِعُ مُتَقَارِبَةٌ لَيْسَتْ مُتَّحِدَةً، فَإِنَّ الْمَشْرِقَ اسْمٌ لِمَكَانِ شُرُوقِ الشَّمْسِ وَهُوَ ظُهُورِهَا فَإِذَا رَاعَوُا الْجِهَةَ دُونَ الْفَصْلِ قَالُوا: الْمَشْرِقَ، بِالْإِفْرَادِ، وَإِذَا رُوعِيَ الْفَصْلَانِ الشِّتَاءُ وَالصَّيْفُ قِيلَ: رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ، عَلَى أَنَّ جَمْعَ الْمَشَارِقِ قَدْ يَكُونُ بِمُرَاعَاةِ اخْتِلَافِ الْمَطَالِعِ فِي مَبَادِئِ الْفُصُولِ الْأَرْبَعَةِ، وَالْآيَةُ صَالِحَةٌ لِلِاعْتِبَارَيْنِ لِيَعْتَبِرَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ النَّاسِ بِهَا عَلَى حسب مبالغ علمهمْ"(٣).

وهذا القسم فيه التنبيه على كمال ربوبيته وعزته، وحكمته وقدرته، وتدبيره وتنوع مخلوقاته الدالة عليه، المرشدة إليه، بما تضمنته من عجائب الصنعة، وبديع الخلقة للخالق ﷻ.

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٦٦.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ١٠.

(٣) التحرير والتنوير ٢٣/ ٨٦.

ثالثًا: **دلالة الشمس على اليقين**:

إن رؤية الآيات -ومنها الشمس-والتفكر فيها يزيد القلب يقينًا وإيمانًا، وتشهد لفاطرها وبارئها بأنه الواحد الأحد الذي لا شريك له، وأنه الكامل في علمه وقدرته ومشيئته وحكمته وربوبيته وملكه، وأنها مسخرة مذللة، منقادة لأمره ﷻ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[1]، قال ابن كثير: " أَيْ نُبَيِّنُ لَهُ وَجْهَ الدَّلَالَةِ فِي نَظَرِهِ إِلَى خَلْقِهِمَا، عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فِي مُلْكِهِ وَخَلْقِهِ، وَإِنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ"[2].

"فَالتَّقْدِيرُ: وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِرَاءَ تَبْصِيرٍ وَفَهْمٍ لِيَعْلَمَ عِلْمًا عَلَى وَفْقِ لِذَلِكَ التَّفْهِيمِ، وَهُوَ الْعِلْمُ الْكَامِلُ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ، وَالْمُوقِنُ هُوَ الْعَالِمُ عِلْمًا لَا يَقْبَلُ الشَّكَّ، وَهُوَ الْإِيقَانُ، وَقَوْلُهُ: مِنَ الْمُوقِنِينَ أَبْلَغُ مِنْ أَنْ يُقَالَ: وَلِيَكُونَ مُوقِنًا"[3].

قال ابن عاشور: " وَاعْلَمْ أَنَّ تَقْوِيَةَ يَقِينِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْحِكَمِ الْإِلَهِيَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ بِمِقْدَارِ قُوَّةِ الْيَقِينِ يَزِيدُونَ ارْتِقَاءً عَلَى دَرَجَةِ مُسْتَوَى الْبَشَرِ، وَالْتِحَاقًا بِعُلُومِ عَالَمِ الْحَقَائِقِ وَمُسَاوَاةً فِي هَذَا الْمِضْمَارِ لِمَرَاتِبِ الْمَلَائِكَةِ"[4].

ثم ذكر الله ﷻ قول إبراهيم ﷺ بعد غياب الشمس، وأنه تبرأ من الشرك، ووجَّهَ وجهه لله ﷻ مخلصًا له، قَالَ: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ ...﴿٧٨﴾ ﴾[5].

---

(١) سورة الأنعام: ٧٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٥٩.

(٣) التحرير والتنوير ٧/ ٣١٦.

(٤) المصدر السابق ١٥/ ٢١.

(٥) سورة الأنعام: ٧٨.

قال ابن عاشور:" وَقَوْلُهُ: فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً أَيْ فِي الصَّبَاحِ بَعْدَ أَنْ أَفَلَ الْقَمَرُ، وَذَلِكَ فِي إِحْدَى اللَّيَالِي الَّتِي يَغْرُبُ فِيهَا الْقَمَرُ قُبَيْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ لِأَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ هَذَا الِاسْتِدْلَالَ كُلَّهُ وَقَعَ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ.

وَقَوْلُهُ لِلشَّمْسِ: (هَذَا رَبِّي) بَاسِمِ إِشَارَةِ الْمُذَكَّرِ مَعَ أَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي مَجْرَى الْمُؤَنَّثِ؛ لِأَنَّهُ اعْتَبَرَهَا رَبًّا، فَرُوعِيَ فِي الْإِشَارَةِ مَعْنَى الْخَبَرِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: هَذَا الْجِرْمُ الَّذِي تَدْعُونَهُ الشَّمْسَ تَبَيَّنَ أَنَّهُ هُوَ رَبِّي، وَجُمْلَةُ هَذَا رَبِّي جَارِيَةٌ مَجْرَى الْعِلَّةِ لِجُمْلَةِ هَذَا رَبِّي الْمُقْتَضِيَةِ نَقْضَ رُبُوبِيَّةِ الْكَوْكَبِ وَالْقَمَرِ، وَحَصْرَ الرُّبُوبِيَّةِ فِي الشَّمْسِ وَنَفْيَهَا عَنِ الْكَوْكَبِ وَالْقَمَرِ، وَلِذَلِكَ حُذِفَ الْمُفَضَّلُ عَلَيْهِ لِظُهُورِهِ، أَيْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُمَا، يَعْنِي أَنَّ الْأَكْبَرَ الْأَكْثَرَ إِضَاءَةً أَوْلَى بِاسْتِحْقَاقِ الْإِلَهِيَّةِ"(١).

رابعاً: دلالة الشمس على قدرة الله ووحدانيته وعلمه ﷻ:

وهذا واضحٌ في قوله تعالى:﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩ ﴾ (٢)، فقد بَيَّنَ الله ﷻ قدرته على خلق الأشياء وتسخيره إياها على مقتضى حكمته، فذكر أنه خلق الشمس، وأنها تحت قهره وتسخيره ومشيئته، وأنها تجري لأجلٍ مسمى، وأن جريانها مع القمر بحسابٍ مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء.

---

(١) التحرير والتنوير ٧/ ٣٢٢.

(٢) سورة يس: ٣٩ – ٤٠.

قال الطبري:" وقوله: (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) يقول: هذا الذي وصفنا من جري الشمس لمستقر لها، تقدير العزيز في انتقامه من أعدائه، العليم بمصالح خلقه، وغير ذلك من الأشياء كلها، لا يخفي عليه خافية"(١).

قال الماتريدي:" وفي ذلك آيات من وجوه: أحدها: آية القدرة على البعث والإحياء بعد الموت، والثاني: آية الوحدانية له والألوهية، والثالث: آية العلم الذاتي له والتدبير الأزلي، أما دلالة البعث فهو ما ذكر من جعل ما هو ليل نهارًا، ومن جعل ما هو نهار ليلا بعد ذهاب أثر هذا بكليته حتى لا يبقى منه شيء، ومجيء الآخر وانتزاع هذا من هذا، وإدخاله في الآخر دلالة على أنه قادر بذاته، لا يعجزه شيء، فمن قدر على هذا قادر على الإحياء بعد الموت.

وأما دلالة الوحدانية فهو إنشاء الدهر من أول إنشائه إلى آخر ما ينتهي إليه، وإجراؤه على مجرى واحد وسنن واحد من الليل والنهار وإدخال هذا في هذا، وهذا في هذا، فلا يقدر المغلوب على إتيان النهار بعد ذلك، وكذلك منشئ النهار إذا غلب على منشئ الليل لهم به على إتيانه بالآخر وغلبه عليه.

وأما دلالة العلم الذاتي والتدبير الأزلي هو إجراء الدهر من أول ما أنشأه على تقدير حاجة أهله، وعلى تقدير منافعهم واتساقه على أمر واحد، دل على أنه كان لم يزل عالِمًا بحوائجهم ومنافعهم، حيث أجرى الدهر على تقدير حوائجهم وتدبير منافعهم، وأن له علمًا ذاتيا وتدبيرًا أزليا لا علمًا مكتسبًا ومستفادًا، وأن له القدرة والسلطان حيث لم يقدر أحد أن يدفع ظلمة الليل عن نفسه إذا احتاج إلى النهار، ولا ملك دفع النهار إذا وقعت الحاجة في الليل، ولا يقدر أحدٌ أن يأتي بأحدهما مكان الآخر بل في وقت آخر.

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٥١٧.

–والخلاصة– أنَّ دلالة الوحدانية، والقدرة، والعلم والتدبير، من حيث جَعْل أطرافِ الأرضِ كُلِّها على تباعُدِ ما بينها، مُتصلةٌ بمنافع الخلق وحوائجهم، بأسبابٍ أنشأها لهم وأعلمهم بها؛ ليصلوا إلى تلك المنافع، فدل أنه فعل واحد؛ ولذلك قال: (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) أي: ذلك الذي ذكر كله تقدير الذي لا يعجزه شيء، والعليم الذي لا يخفى عليه شيء! وبالله القوة"(١).

قال ابن عاشور:" وَالْإِشَارَةُ بِـ(ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) إِلَى الْمَذْكُورِ: إِمَّا مِنْ قَوْلِهِ: وَالشَّمْسُ تَجْرِي أَيْ ذَلِكَ الْجَرْيِ، وَإِمَّا مِنْهُ وَمِنْ قَوْلِهِ: (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ) أَيْ ذَلِكَ الْمَذْكُورُ مِنْ تَعَاقُبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَذِكْرُ صِفَتِي الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ لِمُنَاسَبَةِ مَعْنَاهُمَا لِلتَّعَلُّقِ بِنِظَامِ سَيْرِ الْكَوَاكِبِ، فَالْعِزَّةُ تُنَاسِبُ تَسْخِيرَ هَذَا الْكَوْكَبِ الْعَظِيمِ، وَالْعِلْمُ يُنَاسِبُ النِّظَامَ الْبَدِيعَ الدَّقِيقِ"(٢).

من خلال ما سبق يتضح أنَّ الشمس والقمر من نِعَم الله تعالى على خلقه، وقد سخرهما لعلمه بحاجة الخلق لهما، قال ابن عاشور:" وَهَذِهِ مِنَّةٌ عَلَى النَّاسِ وَتَذْكِيرٌ بِمَظْهَرِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ دَلَائِلِ عِلْمِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ، وَهَذَا بِحَسَبِ مَا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ مِنْهُ وَلَوِ اطَّلَعُوا عَلَى أَسْرَارِ ذَلِكَ النِّظَامِ الْبَدِيعِ لَكَانَتِ الْعِبْرَةُ بِهِ أَعْظَمَ"(٣).

دلالة كون السماء كالْمُـهْل:

أخبر الله ﷻ أن هذه السماوات على ارتفاعها وسُمْكِها العظيم، وجمالها الباهر، يأتي عليها الوقت ويكون زوالها يوم القيامة، وهذه سنة الله في كونه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَوْمَ

(١) تفسير الماتريدي– تحقيق د: مجدي باسلوم– ٨/ ٥١٦– دار الكتب العلمية – بيروت– ط١– ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/ ٢١.

(٣)التحرير والتنوير ٢٣/ ٢١.

تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ ﴾[1] أي: يوم القيامة تتحرك السموات لأمر الله تعالى فيموج بعضها في بعض، ثم تنشق رغم عِظَمِها وارتفاعها، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾[2]، وعندما تتشقّق يكون لها لون وشكل مختلف، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧ ﴾[3]، قال ابن كثير:" فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ أَيْ تَذُوبُ كَمَا يَذُوبُ الدُّرْدِيُّ وَالْفِضَّةُ فِي السَّبْكِ، وَتَتَلَوَّنُ كَمَا تَتَلَوَّنُ الْأَصْبَاغُ الَّتِي يُدْهَنُ بِهَا، فَتَارَةً حَمْرَاءَ وَصَفْرَاءَ وَزَرْقَاءَ وَخَضْرَاءَ، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ وَهَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْعَظِيمِ"[4].

وجاء في اللسان:" الْمُهْلُ: اسمٌ يَجْمَعُ مَعْدِنِيَّات الْجَوَاهِرِ، والْمُهْل: مَا ذَابَ مِنْ صُفْرٍ أَو حَدِيدٍ، وَهَكَذَا فُسِّرَ فِي التَّنْزِيلِ، وَاللَّهُ أَعلم، والْمُهْل والْمُهْلة: ضرْبٌ مِنَ القَطِران ماهِيٌّ رَقِيق يُشْبه الزَّيْتَ، وَهُوَ يضرِب إِلى الصُّفْرَةِ مِنْ مَهاوَتِه، وَهُوَ دَسِم تُدْهَن بِهِ الإِبل فِي الشِّتَاءِ، قَالَ: والقَطِران الْخَاثِرُ لَا يُهْنَأُ بِهِ، وَقِيلَ: هُوَ دُرْدِيُّ الزيتِ، وَقِيلَ: هُوَ العَكَر الْمُغْلى، وَقِيلَ: هُوَ رَقِيق الزَّيْتِ، وَقِيلَ: هُوَ عامَّته، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ، يُقَالُ: هُوَ النُّحاس الْمُذَابُ. وَقَالَ أَبو عَمْرٍو: الْمُهْلُ دُرْدِيُّ الزَّيْتِ؛ قَالَ: والْمُهْلُ أَيضاً القَيْح والصَّدِيد. ومَهَلْت البعيرَ إِذا طَلَيْتَهُ بالخَضْخاض فَهُوَ مَمْهُول"[5].

---

(١) سورة الطور: ٩.

(٢) سورة الانشقاق: ١.

(٣) سورة الرحمن: ٣٧.

(٤) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٦٠.

(٥) لسان العرب لابن منظور ١١/ ٦٣٣- دار صادر – بيروت- ط٣- ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

كيفية كون المهل:

المهل سائل لزج حار، يتكون من الحجارة وما فيها من المعادن، ويخرج من الأرض متدفقًا في الهواء أو منسكبًا فوق الأرض، وله دورة خاصة لحياته، فقد ينشط مع البراكين وقد يسكن مع خمولها.

"قوله تعالى: (فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) منهم من قال: شبه السماء؛ لكثرة تلونها بفرش الورد يكون في الربيع بلون، ثم يصير إلى لون آخر، ثم إلى آخر، فعلى ذلك ما ذكر من تغيير السماء وتلونها، ومنهم من قال: شبهها بالدهان، وهو الدهن؛ للينها وضعفها، والمهل: هو دردي الزيت، لكن التشبيه بالمهل إنما يكون لكثرة التلون لا لِلِّين، وقيل: إنما تحمر وتذوب كالدهن، وروي: أن سماء الدنيا من حديد، فإذا كان يوم القيامة، صارت من الخضرة إلى الاحمرار، وحَرَّ جهنمَ كالحديد إذا حمي بالنار، ثم قَالَ بَعْضُهُمْ: الدهان: جمع الدهن، ويقال: الدهان: الأديم الأحمر، والله أعلم"(١).

وقال الماوردي:" (السمواتُ) فيها ستة أقاويل: أحدها: أن السموات تبدل بغيرها كالأرض، فتجعل السماء من ذهب، والأرض من فضة، قاله علي بن أبي طالب، الثاني: أن السموات تُبدَّلُ بغيرها كالأرض، فتصير السموات جنانًا، والبحار نيرانًا وتُبدَّلُ الأرض بغيرها، قاله كعب الأحبار، الثالث: أن تبديل السموات تكويرُ شمسها وتكاثُر نجومها، قاله ابن عيسى، الرابع: أن تبديلها أن تُطوى كطيِّ السجل للكتب، قاله القاسم بن يحيى، الخامس: أن تبديلها أن تنشق فلا تظل، قاله ابن شجرة، السادس: أن تبديلها اختلاف أحوالها، تكون في حال كالمهل، وفي حال كالوردة، وفي حال كالدهان، حكاه ابن الأنباري.

---

(١) تفسير الماتريدي ٩/ ٤٧٦.

والْمُهل فيه ثلاثة أوجه: أحدها: كدرديّ الزيت، قاله ابن عباس، الثاني: كمذاب الرصاص والنحاس والفضة، قاله ابن مسعود، الثالث: كقيح من دم، قاله مجاهد"[1].

ومن دلالات هذه الآية يتضح أنَّ:

-السماء رمز للعظمة والرزق، فإذا تشققت وسقطت، فهذا يدل على عظم الهول الذي يكون يوم القيامة.

-نهاية الدنيا وبداية الآخرة، حيث إن تشقق السماء وسقوطها يدل على نهاية الدنيا وبداية الآخرة، كما يدل على عذاب الله تعالى للمجرمين يوم القيامة.

تلك هي قصة المهل من الصخر المنصهر إلى الصخر المتشكل، وتمثل تلك القصة دورة حياة ينشط فيها المهل ويسكن، ثم يستعيد نشاطه، فما كان خاملًا من البراكين قد ينشط بعد حينٍ، وما كان نشطًا قد يسكن، وهكذا يمضي المهل دورة حياته دون أن تسخر البشرية بعضًا من مراحل تطوره لخدمتها، فهل بوسع تقنيات ما بعد القرن العشرين أن تستخلص المعادن بصورتها النقية من المهل؟ وهل بوسعها أن تستخلص الحرارة من المهل لخدمتها؟ فتلك ثروة معدنية وطاقة حرارية أهملتها البشرية في قرن تحسب أنها قد ملكت فيه العلم والتقنية، فسبحان الله تعالى الذي خلق فأبدع.

---

(١) تفسير الماوردي ٣/ ١٤٣، ٦/ ٩٢.

المطلب الثاني: الآيات الكونية الأرضية:

لقد عظَّم الله ﷻ من شأن الأرض في كتابه الكريم، ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر في خلقها، ونوه بذكرها أكثر من تعظيم الشمس والقمر والكواكب، وقرن خلقها مع خلق السماوات في عدة آيات من القرآن، وأخبر أنه خلقها وما فيها في أربعة أيام، وأنه خلق السماوات وما فيهن في يومين وذلك يدل على عظم الأرض-هذا الكوكب العظيم-، قَالَ تَعَالَى:﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠﴾[1]، قال السعدي:" وذلك شامل لنفس الأرض، وما فيها، من جبال وبحار، وأنهار، وأشجار، ونبات تدل المتفكر فيها، المتأمل لمعانيها، على عظمة خالقها، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه، بالظواهر والبواطن، وكذلك في نفس العبد من العبر والحكمة والرحمة ما يدل على أن الله وحده الأحد الفرد الصمد، وأنه لم يخلق الخلق سدى"[2].

قال ابن عاشور:" وَالْمَعْنَى: وَفِي مَا يُشَاهَدُ مِنْ أَحْوَالِ الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَهِيَ الْأَحْوَالُ الدَّالَّةُ عَلَى إِيجَادِ مَوْجُودَاتٍ بَعْدَ إِعْدَامِ أَمْثَالِهَا وَأُصُولِهَا، مِثْلَ: إِنْبَاتِ الزَّرْعِ الْجَدِيدِ بَعْدَ أَنْ بَادَ الَّذِي قَبْلَهُ وَصَارَ هَشِيمًا، وَهَذِهِ دَلَائِلُ وَاضِحَةٌ مُتَكَرِّرَةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى غَوْصِ الْفِكْرِ، فَلِذَلِكَ لَمْ تُقْرَنْ هَذِهِ الْآيَاتُ بِمَا يَدْعُو إِلَى التَّفَكُّرِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْآيَاتِ الْمَرْمُوقَةَ مِنْ أَحْوَالِ الْأَرْضِ صَالِحَةٌ لِلدَّلَالَةِ أَيْضًا عَلَى تَفَرُّدِهِ تَعَالَى بِالْإِلَهِيَّةِ فِي كَيْفِيَّةِ خَلْقِهَا وَدَحْوِهَا لِلْحَيَوَانِ وَالْإِنْسَانِ، وَكَيْفَ قُسِّمَتْ إِلَى سَهْلٍ وَجِبَالٍ وَبَحْرٍ، وَنِظَامِ إِنْبَاتِهَا الزَّرْعَ وَالشَّجَرَ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَنَافِعَ لِلنَّاسِ، وَلِهَذَا حُذِفَ تَقْيِيدُ آيَاتٍ بِمُتَعَلِّقٍ؛ لِيَعُمَّ كُلَّ مَا تَصْلُحُ الْآيَاتُ الَّتِي فِي الْأَرْضِ أَنْ تَدُلَّ عَلَيْهِ، وَتَقْدِيمُ الْخَبَرِ فِي قَوْلِهِ:

---

(١) سورة الذاريات: ٢٠.

(٢) تفسير السعدي-ص٨٠٩- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط١- ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.

وَفِي الْأَرْضِ لِلِاهْتِمَامِ وَالتَّشْوِيقِ إِلَى ذِكْرِ الْمُبْتَدَأِ"(١).

وفي دلالتها اللغوية قال ابن فارس:" (أَرَضَ) الْهَمْزَةُ وَالرَّاءُ وَالضَّادُ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ، أَصْلٌ يَتَفَرَّعُ وَتَكْثُرُ مَسَائِلُهُ، وَأَصْلَانِ لَا يَنْقَاسَانِ بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مَوْضُوعٌ حَيْثُ وَضَعَتْهُ الْعَرَبُ، فَأَمَّا هَذَانِ الْأَصْلَانِ فَالْأَرْضُ الزُّكْمَةُ، رَجُلٌ مَأْرُوضٌ، أَيْ: مَزْكُومٌ، وَهُوَ أَحَدُهُمَا، وَالْآخَرُ الرِّعْدَةُ، يُقَالُ: بِفُلَانٍ أَرْضٌ، أَيْ: رِعْدَةٌ، قَالَ ذُو الرُّمَّةِ(٢):

إِذَا تَوَجَّسَ رِكْزًا مِنْ سَنَابِكِهَا *** أَوْ كَانَ صَاحِبَ أَرْضٍ أَوْ بِهِ مُومُ

وَأَمَّا الْأَصْلُ الْأَوَّلُ فَكُلُّ شَيْءٍ يَسْفُلُ وَيُقَابِلُ السَّمَاءَ، يُقَالُ لِأَعْلَى الْفَرَسِ سَمَاءٌ، وَلِقَوَائِمِهِ أَرْضٌ، وَالْأَرْضُ: الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا، وَتُجْمَعُ أَرَضِينَ، وَلَمْ تَجِئْ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَجْمُوعَةً. فَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ ثُمَّ يَتَفَرَّعُ مِنْهُ قَوْلُهُمْ أَرْضٌ أَرِيضَةٌ، وَذَلِكَ إِذَا كَانَتْ لَيِّنَةً طَيِّبَةً. قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ(٣):

بِلَادٌ عَرِيضَةٌ وَأَرْضٌ أَرِيضَةٌ *** مَدَافِعُ غَيْثٍ فِي فَضَاءٍ عَرِيضِ

وَمِنْهُ رَجُلٌ أَرِيضٌ لِلْخَيْرِ، أَيْ: خَلِيقٌ لَهُ، شُبِّهَ بِالْأَرْضِ الْأَرِيضَةِ، وَمِنْهُ تَأَرَّضَ النَّبْتُ: إِذَا أَمْكَنَ أَنْ يُجَزَّ"(٤).

أولًا: دلالة الأرض: قد جاء لفظ الأرض في القرآن في إحدى وخمسين وأربعمائة موضعٍ، ولم يرد بلفظ الجمع(٥).

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٥٢.

(٢) البيت من البسيط، وهو في ديوان ذي الرمة- تحقيق: عبد القدوس أبو صالح- ١/ ٤٤٩-مؤسسة الإيمان جدة-ط١-١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

(٣) البيت من الطويل، وهو في ديوان امرئ القيس- اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي- دار المعرفة – بيروت-ط٢- ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(٤) مقاييس اللغة لابن فارس -١/ ٧٩.

(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٣٤ – ٤٢.

وذكر الفيروز آبادي[١] أنَّ الأَرض في القرآن على أَربعة عشر وجهًا:

الأَوّل: بمعنى الجنَّة: ﴿أَنّ الأرضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون﴾[٢].

الثاني: بمعنى أَرض الشَّأم وبيت المقدس: ﴿كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرض﴾[٣] يعنى أَرض الشام.

الثالث: بمعنى المدينة النبويّة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً﴾[٤] ﴿إِنّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيّايَ فاعبدون﴾[٥].

الرّابع: بمعنى أَرض مصر خصوصًا: ﴿إِنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأرض﴾[٦] ﴿اجعلنى على خَزَآئِنِ الأرض﴾[٧].

الخامس: بمعنى أَرض ديار الإسلام: ﴿إِنّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأرض﴾ [٨].

السّادس: بمعنى جميع الأَرض: ﴿وَمَا مِن دَآبّةٍ فِي الأرض﴾[٩]، ﴿وَفِي الأرض آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[١٠].

السّابع: بمعنى تراب القبر ﴿لَوْ تسوى بِهِمُ الأرض﴾[١١] أَى القبر.

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٢/ ٥٤.

(٢) سورة الأنبياء: ١٠٥.

(٣) سورة الأعراف: ١٣٧.

(٤) سورة النساء: ٩٧.

(٥) سورة العنكبوت: ٥٦.

(٦) سورة القصص: ٤.

(٧) سورة يوسف: ٥٥.

(٨) سورة الكهف: ٩٤.

(٩) سورة هود: ٦.

(١٠) سورة الذاريات: ٢٠.

(١١) سورة النساء: ٤٢.

الثامن: بمعنى تِيه بنى إسرائيل: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأرض﴾ (١).

التَّاسع: كناية عن القلوب: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض﴾ (٢)يعنى منفعة مواعظ القرآن في قلوب الخَلْق.

العاشر: بمعنى ساحة المسجد وصَحْنه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض﴾ (٣).

الحادي عشر: بمعنى الْمُقام: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (٤) أي بأَىّ مقام.

الثاني عشر: بمعنى أَرض مكَّة شرّفها الله تعالى: ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرض﴾ (٥).

الثالث عشر: بمعنى أَرض قُريظة وبنى النَّضير: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَا﴾(٦) .

الرابع عشر: بمعنى أَرض المحشر ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض﴾(٧)، ومن دلالاتها:

دلالة النهي على عدم التكبر في الأرض:

الاستدلال بالآية الكونية -الأرض- على وجود الله بأنه ﷻ خَلَقَها وأوجدها، وسخَّرها، وهذا دليلٌ قاطعٌ على وجود الله ﷻ؛ لافتقار المخلوق إلى الخالق، واحتياج المحدَث إلى المحدِث، وأن العناية بها، والإتقان فيها يدل على وجود خالقها وكمال ذاته وصفاته، وإنَّ المتكبِّر على الله وخَلقه، الذي يعيش فوق الآية الكونية الأرض، وهي إحدى مخلوقات الله ﷻ لهو إنسانٌ لا عقل له، إذ كيف يتكبر على شيءٍ من

---

(١) سورة المائدة: ٢٦.

(٢) سورة الرعد: ١٧.

(٣) سورة الجمعة: ١٠.

(٤) سورة لقمان: ٣٤.

(٥) سورة النساء: ٩٧.

(٦) سورة الأحزاب: ٢٧.

(٧) سورة إبراهيم: ٤٨.

المخلوقات، وهو يعيش فيها، وذلك يتضح في قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧ ﴾(١)، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ ﴾(٢).

قال القرطبي في آية الإسراء:" قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً) هَذَا نَهْيٌ عَنِ الْخُيَلَاءِ وَأَمْرٌ بِالتَّوَاضُعِ، وَالْمَرَحُ: شِدَّةُ الْفَرَحِ، وَقِيلَ: التَّكَبُّرُ فِي الْمَشْيِ، وَقِيلَ: تَجَاوُزُ الْإِنْسَانِ قَدْرَهُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ الْخُيَلَاءُ فِي الْمَشْيِ، وَقِيلَ: هُوَ الْبَطَرُ وَالْأَشَرُ، وَقِيلَ: هُوَ النَّشَاطُ، وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ مُتَقَارِبَةٌ، وَلَكِنَّهَا مُنْقَسِمَةٌ قِسْمَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَذْمُومٌ، وَالْآخَرُ: مَحْمُودٌ، فَالتَّكَبُّرُ وَالْبَطَرُ وَالْخُيَلَاءُ وَتَجَاوُزُ الْإِنْسَانِ قَدْرَهُ مَذْمُومٌ، وَالْفَرَحُ وَالنَّشَاطُ مَحْمُودٌ، والكسل مَذْمُومٌ شَرْعًا، وَالنَّشَاطُ ضِدُّهُ، وَقَدْ يَكُونُ التَّكَبُّرُ وَمَا فِي مَعْنَاهُ مَحْمُودًا، وَذَلِكَ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ وَالظَّلَمَةِ"(٣).

وقال ابن عاشور:" نُهِيَ عَنْ خَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَهِيَ خَصْلَةُ الْكِبْرِيَاءِ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَعَمَّدُونَهَا، وَالْخِطَابُ لِغَيْرِ مُعَيَّنٍ لِيَعُمَّ كُلَّ مُخَاطَبٍ، وَلَيْسَ خطابًا للنبي ﷺ إِذْ لَا يُنَاسِبُ مَا بَعْدَهُ"(٤).

ثم بيَّن:" مَوْقِع قَوْلِهِ: (فِي الْأَرْضِ) بَعْدَ (لَا تَمْشِ) مَعَ أَنَّ الْمَشْيَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْأَرْضِ، هُوَ الْإِيمَاءُ إِلَى أَنَّ الْمَشْيَ فِي مَكَانٍ يَمْشِي فِيهِ النَّاسُ كُلُّهُمْ قَوِيُّهُمْ وَضَعِيفُهُمْ، فَفِي ذَلِكَ مَوْعِظَةٌ لِلْمَاشِي مَرَحًا أَنَّهُ مُسَاوٍ لِسَائِرِ النَّاسِ"(٥).

---

(١) سورة الإسراء: ٣٧.

(٢) سورة لقمان: ١٨.

(٣) تفسير القرطبي ١٠/ ٢٦٠.

(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ١٠٣.

(٥) المصدر السابق ٢١/ ١٦٧.

وقد خرج الخبر في الآية إلى معنى التهكم والسخرية، وقد جاءت الأرض منفردة غير مقترنة بذكر السماء، وإنما ذكرت الجبال في بيان الطول والارتفاع، وهي أعلى ما يمكن أن يتصور فيه ارتفاع، وله نهاية، فذكره ولم يذكر السماء؛ لتقريب الصورة وإيضاحها لدى المتلقي، وقد استخدم حرف الجر (في) في قوله: (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا)، بدلًا من حرف الجر (على) كما في قوله تعالى:﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾(١).

وقد علل الزركشي ذلك فقال:" وَمَا قَالَ: (عَلَى الْأَرْضِ)، وَذَلِكَ لَمَّا وَصَفَ الْعِبَادَ بَيَّنَ أَنَّهُمْ لَمْ يُوَطِّئُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا هُمْ عَلَيْهَا مُسْتَوْقِرُونَ، وَلَمَّا أَرْشَدَهُ ونهاه عن فعل التبختر، قال: (ولا تَمْشِ فِيهَا مَرَحًا) بَلِ امْشِ عَلَيْهَا هَوْنًا"(٢).

دلالة ثبات الأرض:

أخبر الله ﷻ أنه خلق الأرض ومدها، وأرساها بجبالٍ راسياتٍ شامخاتٍ ترسو بها، أي تثبت، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ ﴾(٣)، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٤).

---

(١) سورة الفرقان:٦٣ .

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي–تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم –٤/ ١٧٦–ط١– ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

(٣) سورة الرعد: ٣.

(٤) سورة النمل: ٦١.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴿٦٤﴾ ﴾[1].

أَيْ أن الله تعالى جعل الأرضَ قَارَّةً سَاكِنَةً ثَابِتَةً، لَا تَمِيدُ وَلَا تَتَحَرَّكُ بِأَهْلِهَا وَلَا تَرْجُفُ بِهِمْ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ لَمَا طَابَ عَلَيْهَا الْعَيْشُ وَالْحَيَاةُ، بَلْ جَعَلَهَا مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ مِهَادًا بِسَاطًا ثَابِتَةً لَا تَتَزَلْزَلُ ولا تتحرك.

وجاء في اللسان:" والقَرارةُ مِنَ الأَرض: الْمُطْمَئِنُّ الْمُسْتَقِرُّ، وَقِيلَ: هُوَ القاعُ الْمُسْتَدِيرُ، وَقَالَ أَبو حَنِيفَةَ: القَرارة كُلُّ مُطْمَئِنٍّ انْدَفَعَ إِليه الْمَاءُ فاستقرّ فِيهِ، قَالَ: وَهِيَ مِنْ مَكَارِمِ الأَرض إِذا كَانَتْ سُهولةٌ، القَرارةُ الْمُطَمَئِنُّ مِنَ الأَرض وَمَا يَسْتَقِرُّ فِيهِ مَاءُ الْمَطَرِ، وَجَمْعُهَا القَرارُ"[2].

قال ابن عاشور:" وَالْقَرَارُ: مَصْدَرُ قَرَّ، إِذَا ثَبَتَ وَسَكَنَ. وَوَصَفَ الأَرْض بِهِ لِلْمُبَالَغَة، أَيْ ذَاتُ قَرَارٍ، وَالْمَعْنَى: جَعَلَ الْأَرْضَ ثَابِتَةً قَارَّةً غَيْرَ مُضْطَرِبَةٍ، وَهَذَا تَدْبِيرٌ عَجِيبٌ وَلَا يُدْرَكُ تَمَامُ هَذَا الصُّنْعِ الْعَجِيبِ إِلَّا عِنْدَ الْعِلْمِ بِأَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ سَابِحَةٌ فِي الْهَوَاءِ مُتَحَرِّكَةٌ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ قَارَّةٌ فِيمَا يَبْدُو لِسُكَّانِهَا فَهَذَا تَدْبِيرٌ أَعْجَبُ، وَفِيهِ مَعَ ذَلِكَ رَحْمَةٌ وَنِعْمَةٌ، وَلَوْلَا قَرَارُهَا لَكَانَ النَّاسُ عَلَيْهَا مُتَزَلْزِلِينَ مُضْطَرِبِينَ، وَلَكَانَتْ أَشْغَالُهُمْ مُعَتِّتَةً لَهُمْ.

وَمَعَ جَعْلِهَا قَرَارًا شَقَّ فِيهَا الْأَنْهَارَ فَجَعَلَهَا خِلَالَهَا، وَالرَّوَاسِي: الْجِبَالُ، جَمْعُ رَاسٍ وَهُوَ الثَّابِتُ، وَاللَّامُ فِي لَهَا لَامُ الْعِلَّةِ، أَيِ الرَّوَاسِي لِأَجْلِهَا أَيْ لِفَائِدَتِهَا، فَإِنَّ فِي تَكْوِينِ الْجِبَالِ حِكْمَة لدفع الملاسة عَنِ الْأَرْضِ؛ لِيَكُونَ سَيْرُهَا فِي الْكُرَةِ الْهَوَائِيَّةِ مُعَدَّلًا غَيْرَ شَدِيدِ السُّرْعَةِ وَبِذَلِكَ دَوَامُ سَيْرِهَا.

---

(١) سورة غافر: ٦٤.

(٢) لسان العرب ٥/ ٨٥.

وَلَمَّا كَانَ الْمَقْصُودُ الْأَوَّلُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الِامْتِنَانَ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: (لَكُمُ) قُدِّمَتِ الْأَرْضُ عَلَى السَّمَاءِ؛ لِأَنَّ الِانْتِفَاعَ بِهَا مَحْسُوسٌ، وَذُكِرَتِ السَّمَاءُ بَعْدَهَا كَمَا يُسْتَحْضَرُ الشَّيْءُ بِضِدِّهِ، مَعَ قَصْدِ إِيدَاعِ دَلَائِلِ عِلْمِ الْهَيْئَةِ لِمَنْ فِيهِمُ اسْتِعْدَادٌ؛ لِلنَّظَرِ فِيهَا وَتَتَبُّعِ أَحْوَالِهَا عَلَى تَفَاوُتِ الْمَدَارِكِ وَتَعَاقُبِ الْأَجْيَالِ وَاتِّسَاعِ الْعُلُومِ.

فَكَانَتْ خِلْقَةُ الْأَرْضِ دَالَّةً عَلَى عَظِيمِ قُدْرَةِ اللهِ وَعَلَى دَقِيقِ حِكْمَتِهِ وَعَلَى رَحْمَتِهِ بِالْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ الْمَعْمُورِ بِهِمَا وَجْهُ الْأَرْضِ"[1].

من خلال ما سبق يتضح أَنَّ كِتَابَ اللهِ يَشْتَمِلُ عَلَى الْحَقَائِقِ، وَهِيَ كُلُّ كَلَامٍ بَقِيَ عَلَى مَوْضُوعِهِ، كالآيات التي لم يتجوز فيها، والآيات النَّاطِقَةُ ظَوَاهِرُهَا بِوُجُودِ اللهِ تَعَالَى، وَتَوْحِيدِهِ، وَتَنْزِيهِهِ، وَالدَّاعِيَةُ إِلَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وأنَّ دلالة ثبات الأرض من حكمة الله وبديع صُنعه ﷻ.

دلالة تقديم الأرض على السماء أو السموات:

إذا قرأنا كتاب الله ﷻ وجدنا أن لفظة: (السماء) أو (السموات) هي المتقدمة غالبًا على الأرض، عندما يأتي السياق القرآني بهما مجتمعتين، ولا شك أن دلالات التقديم لهذه المعاني مطلوبة ومقصودة، حيث تقع من السمع موقع الاستحسان؛ لأن الآيات التي في السماء أعظم منها في الأرض لسعتها وعظمتها، وما فيها من كواكب، وشمس، وقمر، ونجوم، ولاستغنائها عن عَمَدٍ تُقِلُّها، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[2].

إن الأسلوب القرآني البليغ لم يقدم مفردة أو يؤخرها إلا لمعنى مطلوبٍ، فالمفردات القرآنية تستقر في سياقاتها ومكانها اللائق بها، بحيث لو تغيَّر مكانها، أو

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/ ١٣، ٢٤/ ١٨٩.

(٢) سورة الرعد: ٣.

استبدلت بأخرى لاختل المعنى، فتقديم السماء أو السموات على الأرض لشرفها وعلوها ولعظيم خلقها، فإذا ما تقدمت الأرض عليها، فلا بد أن يكون هناك معنى دلاليًّا مقصودًا، وقُدّمت الأرضُ على السماء في القرآن الكريم في سبعة عشر موضعًا، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦١ ﴾[1] جاءت الآية في سياق الإخبار عن إحاطة علم الله وسعته، ومعنى (يعزب) أي لا يبعد ولا يغيب، وقد قرن السياق القرآني بين الأرض والسماء؛ لتحقيق معنى الشمولية لسعة علم الله ومعرفته بدقائق الأمور وجزئياتها، وأما عن تقديم الأرض في هذا الموضع، قال الزمخشري:" فإن قلت: لم قُدّمت الأرض على السماء، بخلاف قوله في سورة سبأ: (عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ)؟ قلت: حَقُّ السماء أن تُقدَّم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله: (لا يَعْزُبُ عَنْهُ) لَاءَمَ ذَلِكَ أن قدّم الأرض على السماء، على أنّ العطف بالواو حكمه حكم التثنية"[2].

وقال ابن عاشور أيضًا:" وَتَقْدِيمُ الْأَرْضِ هُنَا؛ لِأَنَّ مَا فِيهَا أَعْلَقُ بِالْغَرَضِ الَّذِي فِيهِ الْكَلَامُ، وَهُوَ أَعْمَالُ النَّاسِ، فَإِنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ بِخِلَافِ مَا فِي سُورَةِ سَبَأٍ (عالم الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ)، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ الْمَقَامُ لِذِكْرِ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَالْغَيْبُ مَا غَابَ عَنِ النَّاسِ، وَمُعْظَمُهُ فِي السَّمَاءِ، لَاءَمَ ذَلِكَ أَنْ قُدِّمَتِ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ"[3].

---

(١) سورة يونس: ٦١.

(٢) تفسير الزمخشري ٢/ ٣٥٥.

(٣) التحرير والتنوير ١١/ ٢١٤، البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢٥٧.

وقد جاء بلفظ (السماء) هنا مفردة غير مجموعة؛ لأن المراد الوصف الشامل وليس سماء معينة، وقد زيدت (من) في آية سورة يونس في قوله: (من مثقال)؛ لأن الكلام فيها على إحاطة علم الله بالغيب، وأنه يعلم كل شيء فجاء بـ(من) لتأكيد عموم النفي، فضلًا عما أشارت إليه الآية من معنى التهديد للكافرين؛ لأن الله مُطلعٌ على جميع أحوالهم وأفعالهم، وفيها أيضًا تسليةٌ للنبي ﷺ، وأن الله مطلعٌ على ما يلاقيه.

ثانياً: الجبال:

الجبل جزءٌ من تضاريس الأرض، يعلو كل ما يجاوره، والجبال عامة أكبر من التلال، قال ابن فارس:" (جَبَلٌ) الْجِيمُ وَالْبَاءُ وَاللَّامُ: أَصْلٌ يَطَّرِدُ وَيُقَاسُ، وَهُوَ تَجَمُّعُ الشَّيْءِ فِي ارْتِفَاعٍ، فَالْجَبَلُ مَعْرُوفٌ، وَالْجَبَلُ: الْجَمَاعَةُ الْعَظِيمَةُ الْكَثِيرَةُ، وَيُقَالُ لِلنَّاقَةِ الْعَظِيمَةِ السَّنَامِ جَبَلَةٌ، وَقَالَ قَوْمٌ: السَّنَامُ نَفْسُهُ جَبْلَةٌ وَامْرَأَةٌ جَبْلَةٌ: عَظِيمَةُ الْخَلْقِ، وَالْجِبِلَّةُ: الْخَلِيقَةُ، وَالْجِبِلُّ: الْجَمَاعَةُ الْكَثِيرَةُ"(١).

الجبالُ كتلٌ ضخمةٌ من الأحجار والصخور، توجد على قطعةٍ ضخمةٍ كبيرةٍ هي سطح الأرض، الذي يتكون من نفس المادة، فكتلةٌ هائلةٌ من الصخور تجثم على كتلة أخرى هي سطح الأرض، هذا الذي يعلمه الناس عن الجبال، ولكن الإنسان عندما تعمَّق في بصره ورأى ما تحت هذه الطبقات، وما تحت قدمه، وكشف الطبقات التي تتكون منها الأرضُ، وجد أنَّ الجبال تخترق الطبقة الأولى التي يصلُ سُمكُها إلى خمسين كيلو مترًا من الصخور هي قشرة الأرض، يخترق هذه الطبقة ليمُدَّ جذرًا له في الطبقة الثانية المتحركة تحتها وتحت أرضنا، وهذه طبقةٌ أخرى تتحركُ، لكنَّ الله تعالى ثبَّتَ هذه الأرض على تلك الطبقة المتحركة بجبالٍ تخترق الطبقتين، كما يثبتُ الوتدُ الخيمةَ بالأرض التي تحت الخيمة، وهكذا وجدوا جذرًا تحت كلِّ جبلٍ(٢).

وقد ذكر القرآن الكريم كل ذلك، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ ﴾(٣)، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾(٤)، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾(٥).

---

(١) مقاييس اللغة ١/ ٥٠٢.

(٢) موسوعة الإعجاز العلمي- يوسف الحاج أحمد- ص٢٣٦.

(٣) سورة المرسلات: ٢٧.

(٤) سورة النازعات: ٣٢.

(٥) سورة النبأ: ٧.

وقد ورد لفظ الجبل في القرآن في ستة مواضع، وبلفظ الجمع في (٣٣) موضعًا[١] ، وذكر الفيروز آبادي أن" الجبل في القرآن على عشرين وجهًا، وقد ذكر الله تعالى للجبال في القرآن خمس مناقب: الأَوّل: الاندكاك (جَعَلَهُ دَكّاً)، الثَّاني: الانشقاق (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماء)، الثَّالث: الإشفاق (وأَشْفَقن منها)، الرّابع، والخامس: الخشوع والخشية (لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ الله)"[٢].

الجبال من آيات الله العظيمة التي أمر الله بالتفكر فيها، وهي من دلائل وحدانية الله ﷻ، ومما يقر به المشركون، وأن السماء والأرض تُسبّح الله وتُقدّسُه، وتنزهه عما وصفه المشركون، وكذلك الجبال فإنها تكاد أن تسقط من دعوة المشركين لله الولد تنزيهًا وتعظيمًا لله تعالى، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ ﴾[٣].

قال ابن القيم:" تَأمل الْحِكْمَة العجيبة فِي الْجبَال الَّذِي يحسبها الْجَاهِل الغافل فضلَة فِي الأرض لَا حَاجَة إليها، وفيهَا من الْمَنَافِع مَالا يُحْصِيه إلا خَالِقهَا وناصبها...، ولقد دعانا الله ﷻ في كتابه إلى النظر فيها وفي كيفية خلقها، فقال تَعَالَىٰ:﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠ ﴾[٤]، فخلْقُها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة بارئها وخالقها، وعلمه وحكمته ووحدانيته، هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له، وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته، وهي التي خافت من ربها

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٢٠٧ – ٢٠٨.

(٢) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٢/ ٣٦٢- ٣٦٤.

(٣) سورة مريم: ٩٠.

(٤) سورة الغاشية: ١٧ – ٢٠.

وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة، إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها، فهذا حال الجبال، وهي الحجارة الصلبة وهذه رقتها، وخشيتها، وتدكدكها، من جلال ربها وعظمته ..."[١].

دلالة كون الجبال أوتاداً:

وصف الله تعالى الجبال بأنها أوتادًا؛ لتثبيت الأرض، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ ﴾[٢]، بَيَّنَ الله ﷻ من الأدلة على صِدْقِ ما جاءت به الرسل، وأنه سبحانه جعل الجبال أوتادا للأرض تمسكها عن الاضطراب، وأنَّ القادر على ذلك قادرٌ على البعث والجزاء، وفي ذلك دلالةٌ واضحةٌ إلى أن هذه المعالم المدهشة ليست عبارة فقط عن الارتفاعات التي نراها على سطح الكرة الأرضية، إنما يؤكدُ الله ﷻ بذلك أنَّ للجبالِ امتداداتٌ داخل الكرة الأرضية، فكما أنَّ الوتد يكمُنُ أغلبه داخل التربة أو الصخر، فكذلك الجبالُ لها جذورٌ عميقةٌ لتثبيت الكرة الأرضية ككلّ، فما نراه من جبالٍ فوق سطح الكرة الأرضية ما هي إلا قِمَمٌ لكُتلٍ ضخمةٍ من الصخور.

ويتضح من خلال ذلك دلالة لفظة (أوتادًا) على هذا المعنى المحوري الذي يدلُّ على عمق هذا الوتد؛ لتثبيت الكرة الأرضية، وبناءً على ذلك فإن استخدام القرآن الكريم لهذه اللفظة للتعبير عن الجبال هو أكثر دقةٍ لغويا وعلميًّا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مَقَامُ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى مُنْكِرِي الْبَعْثِ، فَسِيقَ لَهُمُ الِاسْتِدْلَالُ بِإِنْشَاءِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا تُعَدُّ إِعَادَةُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا شَيْئًا عَجِيبًا[٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم بتصرف ١/ ٢١٨.

(٢) سورة النبأ: ٦ – ٧.

(٣) التحرير والتنوير ٢٥/ ١٦٩.

ذكر بعض العلماء:" أنَّ هذه الجبال في نظر علماء الجيولوجيا في القرن التاسع عشر الميلادي لا تعدو أن تكون مرتفعاتٍ أو نتوءاتٍ فوق سطح البحر، وأخيرًا طرح أحدُ العلماء نظرية تقول: إنه ربما كان لهذه الجبال جذورٌ في الأرض، وتبيَّن لهم: أن الجبل له جذرٌ يمتد تحت سطح الأرض، بما يعادلُ (٤.٥) أضعاف ارتفاعه فوق سطح الأرض، وأنَّ وظيفته تثبيت الأرض وحفظ توازنها، ولم يصل الباحثون إلى ذلك إلا في عام (١٩٥٦م)، رغم أنَّ القرآن الكريم ذكر هذا السرّ قبل أربعة عشر قرنًا"[١]، فسبحان الخالق العظيم المبدع في صنعه.

(١) موسوعة الإعجاز العلمي بتصرف- يوسف الحاج أحمد- ص٢٣٨- ٢٣٩.

ثالثاً: البحار والأنهار والمياه:

لَمَّا خلق الله تعالى السماء والأرض، وأراد سبحانه خلقَ الإنسان على هذه الأرض خلق له ما يُصلحه في المعيشة، فقدَّر البحار والأنهار؛ ليكون الماءُ سببًا في الحياة، ففيه قوامُ حياة الإنسان وجميع الكائنات على وجه الأرض.

وفي دلالتهما اللغوية قال ابن فارس: " (بَحَرَ) الْبَاءُ وَالْحَاءُ وَالرَّاءُ، قَالَ الْخَلِيلُ: سُمِّيَ الْبَحْرُ بَحْرًا؛ لِاسْتِبْحَارِهِ وَهُوَ انْبِسَاطُهُ وَسَعَتُهُ، وَاسْتَبْحَرَ فُلَانٌ فِي الْعِلْمِ، وَتَبَحَّرَ الرَّاعِي فِي رِعْيٍ كَثِيرٍ، وَيُقَالُ لِلْمَاءِ إِذَا غَلُظَ بَعْدَ عُذُوبَةٍ: اسْتَبْحَرَ وَمَاءٌ بَحْرٌ، أَيْ: مِلْحٌ، قَالَ: وَالْأَنْهَارُ كُلُّهَا بِحَارٌ، وَيُقَالُ: هَذِهِ بَحْرَتُنَا قَالَ بَعْضُهُمْ: الْبَحْرَةُ الْفَجْوَةُ مِنَ الْأَرْضِ تَتَّسِعُ.

وقال أيضًا: (نَهَرَ) النُّونُ وَالْهَاءُ وَالرَّاءُ، أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَفَتُّحِ شَيْءٍ أَوْ فَتْحِهِ، وَأَنْهَرْتُ الدَّمَ: فَتَحْتُهُ وَأَرْسَلْتُهُ، وَسُمِّيَ النَّهْرَ؛ لِأَنَّهُ يَنْهَرُ الْأَرْضَ أَيْ يَشُقُّهَا"[1].

دلالة بركة الماء وسر الحياة:

ومعلومٌ أنَّ الماءَ هو الحياة، ومن دونه تستحيل الحياة على سطح الأرض، وقد ذكره الله تعالى في القرآن الكريم بلفظ (ماء) مُنكرًا (٣٣ مرة)، وبلفظ (الماء) مُعرَّفًا (١٦ مرة).

وصف الله تعالى الماء بأنه مباركٌ كثير العطايا، دائم النفع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ ﴾[2]، قال ابن عاشور: " فِي الْآيَةِ استدلالان: اسْتِدْلَالٌ بِإِنْزَالِ الْمَاءِ مِنَ السَّحَابِ، وَاسْتِدْلَالٌ بِالْإِنْبَاتِ، وَفِي هَذَا أَيْضًا

---

(١) مقاييس اللغة ١/ ٢٠١، ٥/ ٣٦٢.

(٢) سورة ق: ٩.

مِنَّةٌ على الْمُعرِضين عَن النَّظَرِ فِي دَلَائِلِ صُنْعِ اللَّهِ الَّتِي هِيَ دَوَاعٍ لِشُكْرِ الْمُنْعِمِ بِهَا لِمَا فِيهَا مِنْ مَنَافِعَ لِلنَّاسِ مِنْ رِزْقِهِمْ وَرِزْقِ أَنْعَامِهِمْ، وَمِنْ تَنَعُّمِهِمْ وَجَمَالِ مَرَائِيهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَوْ شَكَرُوا الْمُنْعِمَ بِهَا لكانوا عِنْد مَا يَبْلُغُهُمْ عَنْهُ أَنَّهُ يَدْعُوهُمْ إِلَى النَّظَرِ فِي الْأَدِلَّةِ مُسْتَعِدِّينَ لِلنَّظَرِ، بِتَوَقُّعِ أَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ الْبَالِغَةُ إِلَيْهِمْ صَادِقَةَ الْعَزْوِ إِلَى اللَّهِ فَمَا خَفِيَتْ عَنْهُمُ الدِّلَالَةُ، وَمُنَاسَبَةُ الِانْتِقَالِ مِنْ ذِكْرِ السَّمَاوَاتِ إِلَى ذِكْرِ السَّحَابِ وَالْمَطَرِ قَوِيَّةٌ"(١).

وقد سماه الله تعالى: مباركًا؛" لأنه يُستعملُ في أمر الدّين والدنيا، ويَطهُر به كلُّ شيءٍ ويُزَيَّنُ، وبه حياةُ كلّ شيءٍ ونماؤُه، والمباركُ: كلُّ خيرٍ يكون على النماء والزيادة في كل وقت"(٢).

وذكر ﷻ أنَّ إنزال الماء من السماء؛ لإحياء الأرض بعد موتها، هو دليلٌ وعلامةٌ على وجوده ﷻ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾(٣)، وللعلماء في هذه الآية أقوالٌ بالغة الروعة، قال القرطبي في تفسير هذه الآية:" قَالَ: لَمَّا نَزَلَت (وَإِلهُكُمْ إِلـهٌ واحِدٌ)، قَالُوا هَلْ مِنْ دَلِيلٍ عَلَى ذَلِكَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ)، فَكَأَنَّهُمْ طَلَبُوا آيَةً فَبَيَّنَ لَهُمْ دَلِيلَ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّ هَذَا الْعَالَمَ وَالْبِنَاءَ الْعَجِيبَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ بَانٍ وَصَانِعٍ، وَجَمَعَ السموات؛ لِأَنَّهَا أَجْنَاسٌ مُخْتَلِفَةٌ كُلُّ سَمَاءٍ مِنْ جِنْسٍ غَيْرِ جِنْسِ الْأُخْرَى، وَوَحَّدَ الْأَرْضَ لِأَنَّهَا كُلَّهَا تراب، والله تعالى أعلم، فآية السموات: ارْتِفَاعُهَا بِغَيْرِ

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٥.

(٢) تفسير الماتريدي ٩/ ٣٤٧.

(٣) سورة البقرة: ١٦٤.

عَمَدٍ مِنْ تَحْتِهَا وَلَا عَلَائِقَ مِنْ فَوْقِهَا، وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى الْقُدْرَةِ وَخَرْقِ الْعَادَة، ثُمَّ مَا فِيهَا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ السَّائِرَةِ وَالْكَوَاكِبِ الزَّاهِرَةِ شَارِقَةً وَغَارِبَةً نَيِّرَةً وَمَمْحُوَّةً آيَةٌ ثَانِيَةٌ، وَآيَةُ الْأَرْضِ: بِحَارُهَا وَأَنْهَارُهَا وَمَعَادِنُهَا وَشَجَرُهَا وَسَهْلُهَا وَوَعْرُهَا.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ) يَعْنِي بِهَا: الْأَمْطَارَ الَّتِي بِهَا إِنْعَاشُ الْعَالَمِ وَإِخْرَاجُ النَّبَاتِ وَالْأَرْزَاقِ، وَجَعَلَ مِنْهُ الْمَخْزُونَ عِدَّةً لِلِانْتِفَاعِ فِي غَيْرِ وَقْتِ نُزُولِهِ(١).

وقال في آية النحل (٢):" (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ) أَيِ السَّحَابِ، (مَاءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها) عَادَ الْكَلَامُ إِلَى تَعْدَادِ النِّعَمِ وبيان كمال القدرة، (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً) أي دلالة على البعث وعلى وَحْدَانِيَّتِهِ، إِذْ عَلِمُوا أَنَّ مَعْبُودَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُ شيئا، فتكون هذه الدلالة (لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) عَنِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْقُلُوبِ لَا بِالْآذَانِ"(٣).

وقال ابن عاشور:" وَإِسْنَادُ الْإِنْزَالِ إِلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي أَوْجَدَ أَسْبَابَ نُزُولِ الْمَاءِ بِتَكْوِينِهِ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِ هَذَا الْعَالَمِ عَلَى نِظَامٍ مُحْكَمٍ، وَوجه الْعبْرَة فِيهِ أَنَّ شَأْنَ الْمَاءِ الَّذِي يَسْقِي الْأَرْضَ أَنْ يَنْبُعَ مِنْهَا، فَجَعْلُ الْمَاءِ نَازِلًا عَلَيْهَا مِنْ- ضِدِّهَا وَهُوَ السَّمَاءُ- عِبْرَةٌ عَجِيبَةٌ.

---

(١) تفسير القرطبي باختصار ٢/ ١٩١-١٩٦.

(٢) سورة النحل: ٦٥ -قَوْله تَعَالَى: (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ).

(٣) تفسير القرطبي ١٠/ ١٢٢.

وَفِي الْآيَةِ عِبْرَةٌ عِلْمِيَّةٌ لِمَنْ يَجِيءُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ، وَذَلِكَ أَنَّ جَعْلَ الْمَاءِ نَازِلًا مِنَ السَّمَاءِ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ بُخَارَ الْمَاءِ يَصِيرُ مَاءً فِي الكرة الهوائية عِنْدمَا يُلَامِسُ الطَّبَقَةَ الزَّمْهَرِيرِيَّةَ...، فأسند إِلَيْهَا بإنزال الْمَاءِ مَجَازًا عَقْلِيًّا.

وَقَوْلُهُ: (فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ) مَعْطُوفٌ عَلَى الصِّلَةِ بِالْفَاءِ؛ لِسُرْعَةِ حَيَاةِ الْأَرْضِ إِثْرَ نُزُولِ الماء، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ الْفِعْلُ وَالْفَاءُ مَوْضِعُ عِبْرَةٍ وَمَوْضِعُ مِنَّةٍ، وَأُطْلِقَتِ الْحَيَاةُ عَلَى تَحَرُّكِ الْقُوَى النَّامِيَةِ مِنَ الْأَرْضِ، وَهِيَ قُوَّةُ النَّبَاتِ استعارة؛ لِأَنَّ الْحَيَاةَ حَقِيقَةً هِيَ ظُهُورُ الْقُوَى النَّامِيَةِ فِي الْحَيَوَانِ فَشُبِّهَتِ الْأَرْضُ بِهِ، وَإِذَا جَعَلْنَا الْحَيَاةَ حَقِيقَةً فِي ظُهُورِ قَوَى النَّمَاءِ وَجَعَلْنَا النَّبَاتَ يُوصَفُ بِالْحَيَاةِ حَقِيقَةً وَبِالْمَوْتِ، فَقَوْلُهُ: (فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ) مَجَازٌ عَقْلِيٌّ، وَالْمُرَادُ إِحْيَاءُ مَا تُرَادُ لَهُ الْأَرْضُ وَهُوَ النَّبَاتُ"(١).

ومن خلال ما سبق يتضح أنَّ قدرته ﷻ وسلطانه، حيث أخبر أنه ينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض وهي ميتة، ويخرج منها نباتًا وزروعًا وأشجارًا، فمن قدر على هذا لقادر على إحياء الأنفس بعد موتها؛ لأنه لا فرق بين الإحياءين، إحياء الأرض واحياء الأنفس، إذ من قدر على أحدهما قدر على الآخر.

وقد استدل الله ﷻ بما على الأرض من بحار وأنهار وما في صفاتها من دلالة زائدة على دلالة وجود أعيانها، بتفرده ﷻ بالإلهية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾(٢)، قال ابن عاشور وفيه:" انْتِقَالٌ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ بِالْأَحْوَالِ فِي الْأَجْوَاءِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَلَى تَفَرُّدِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْإِلَهِيَّةِ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ بِمَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ بِحَارٍ وَأَنْهَارٍ وَمَا فِي

---

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٨٢.

(٢) سورة فاطر: ١٢.

صِفَاتِهَا مِنْ دَلَالَةٍ زَائِدَةٍ عَلَى دَلَالَةِ وُجُودِ أعيانها، على عَظِيم مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، فَصِيغَ هَذَا الِاسْتِدْلَالُ عَلَى أُسْلُوبٍ بَدِيعٍ إِذِ اقْتُصِرَ فِيهِ عَلَى التَّنْبِيهِ عَلَى الْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، وَهِيَ نَامُوسُ تَمَايُزِهَا بِخَصَائِصَ مُخْتَلِفَةٍ وَاتِّحَادِ أَنْوَاعِهَا فِي خَصَائِصَ مُتَمَاثِلَةٍ، اسْتِدْلَالًا عَلَى دَقِيقِ صُنْعِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَتَضَمَّنُ ذَلِكَ الِاسْتِدْلَالَ بِخَلْقِ الْبَحْرَيْنِ أَنْفُسِهِمَا؛ لِأَنَّ ذِكْرَ اخْتِلَافِ مَذَاقِهِمَا يَسْتَلْزِمُ تَذَكُّرَ تَكْوِينِهِمَا؛ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ بِأَفَانِينِ الدَّلَائِلِ عَلَى دَقِيقِ صُنْعِ اللَّهِ تَعَالَى"(١).

دلالة القَسَم بالبحار:

مِن أكثرِ الآياتِ الباهرة في البحارِ والمحيطاتِ ما جاءَ بهِ القرآنُ الكريمُ حين يُقسِمُ الله العظيم بمخلوقاته العظيمة وهو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته، ويُقسم بها على أن القيامة واقعة، ومن ذلك القَسم بالبحر، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ ﴾(٢)، فالله ﷻ يقسم بهذه الخلائق العظيمة على أمر عظيم، وهو وقوع العذاب على الكافرين، الْأَحْمَرُ وَمُنَاسَبَةُ الْقَسَمِ بِهِ، أَنه بِهِ أُهْلِكَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ حِينَ دَخَلَهُ مُوسَى وَبَنُو إِسْرَائِيلَ فَلَحِقَ بِهِمْ فِرْعَوْنُ.

قال ابن فارس:" السِّينُ وَالْجِيمُ وَالرَّاءُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: الْمَلْءُ، وَالْمُخَالَطَةُ، وَالْإِيقَادُ، فَأَمَّا الْمَلْءُ، فَمِنْهُ الْبَحْرُ الْمَسْجُورُ، أَيِ الْمَمْلُوءُ، وَيُقَالُ لِلْمَوْضِعِ الَّذِي يَأْتِي عَلَيْهِ السَّيْلُ فَيَمْلَؤُهُ: سَاجِرٌ، وَأَمَّا الْمُخَالَطَةُ فَالسَّجِيرُ: الصَّاحِبُ وَالْخَلِيطُ، وَمِنْهُ عَيْنٌ سَجْرَاءُ، إِذَا خَالَطَ بَيَاضَهَا حُمْرَةٌ، وَأَمَّا الْإِيقَادُ فَقَوْلُهُمْ: سَجَّرْتُ التَّنُّورَ، إِذَا أَوْقَدْتَهُ، وَالسَّجُورُ: مَا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٧٩.

(٢) سورة الطور: ١ – ٧.

يُسْجَرُ بِهِ التَّنُّورُ، وَمِمَّا يُقَارِبُ هَذَا اسْتَجَرَتِ الْإِبِلُ عَلَى نَجَائِهَا، إِذَا جَدَّتْ، كَأَنَّهَا تَتَّقِدُ فِي سَيْرِهَا اتِّقَادًا، وَمِنْهُ سَجَرَتِ النَّاقَةُ، إِذَا حَنَّتْ حَنِينًا شَدِيدًا"(١).

وجاء في اللسان:" سَجَرَه يَسْجُرُه سَجْراً وسُجوراً وسَجَّرَه: ملأَه، وسَجَرْتُ النهرَ: ملأْتُه، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ؛ فَسَّرَهُ ثَعْلَبٌ فَقَالَ: مُلِئَتْ، قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: وَلَا وَجْهَ لَهُ إِلا أَن تَكُونَ مُلِئَت نَارًا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)، وَكَانَ عَلِيّ بنِ أَبي طَالِبٍ ﷺ، يَقُولُ: المسجورُ بِالنَّارِ، وَقَالَ فِي قَوْلِهِ: (وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ)؛ أَفضى بَعْضُهَا إِلى بَعْضٍ فَصَارَتْ بَحْرًا وَاحِدًا"(٢).

وَقَالَ الزَّجَّاجُ: قُرِئَ سُجِّرت بالتثقيل، ويقرأ (سُجِرَتْ) بالتخفيف، ومعنى سُجِّرَتْ قيل: إنه في معنى فُجِّرتْ، وقيل سُجِّرَتْ مُلِئَتْ، ومِنه البحر المسْجُورِ الْمَمْلُوء، وقيل معنى سُجِرَت جُعَلِتْ مياهها نيرانًا بها يعذَب أهل النَّارِ"(٣).

قال ابن عاشور:" والْمَسْجُورِ: قِيلَ الْمَمْلُوءُ، مُشْتَقًّا من السّجر، وهو الْمِلْءُ وَالْإِمْدَادُ، فَهُوَ صِفَةٌ كَاشِفَةٌ قُصِدَ مِنْهَا التَّذْكِيرُ بِحَالِ خَلْقِ اللَّهِ إِيَّاهُ مَمْلُوءًا مَاءً دُونَ أَنْ تَمْلَأَهُ أَوْدِيَةٌ أَوْ سُيُولٌ، أَوْ هِيَ لِلِاحْتِرَازِ عَنْ إِرَادَةِ الْوَادِي، إِذِ الْوَادِي يَنْقُصُ فَلَا يَبْقَى عَلَى مِلْئِهِ، وَذَلِكَ دَالٌّ عَلَى عِظَمِ الْقُدْرَةِ، وَالظَّاهِرُ عِنْدِي: أَنَّ وَصْفَهُ بِالْمَسْجُورِ لِلْإِيمَاءِ إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ بِهَا هَلَاكُ فِرْعَوْنَ، بَعْدَ أَنْ فَرَقَ اللَّهُ الْبَحْرَ لِمُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ ثُمَّ أَسْجَرَهُ، أَيْ أَفَاضَهُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ"(٤).

وجاء وصفه في تفسير الماتريدي، فقال:" قال أهل الأدب: هو البحر الملآن الحار؛ لأنه ﷻ منذ أنشأه، أنشأه حارًّا ممتلئًا، عميقا، لم يتغير في وقت من الأوقات،

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ١٣٤.

(٢) لسان العرب ٤/ ٣٤٥.

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ٢٩٠.

(٤) التحرير والتنوير ٢٧/ ٣٩.

ولا في حال من الأحوال، بل كان على حالة واحدة حارًّا، مالحًا ممتلئًا عميقا عريضا، ليس كسائر الأنهار التي ربما تتغير عن جهتها من قلة الماء وسكونه وغورها في الأرض وامتلائها من الطين، وحاجتها إلى الحفر، وغير ذلك من التغير الذي يكون بها، فأما البحر على حالة واحدة في الأحوال كلها، فأقسم به"[1].

ومن خلال ما سبق يتضح أن دلالة الْقَسَم لِلتَّأْكِيدِ وَتَحْقِيقِ الْوَعِيدِ، وَمُنَاسَبَةِ الْأُمُورِ الْمُقْسَمِ بِهَا لِلْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، وأن الله تبارك وتعالى يقسمُ بهذا البحرِ المسجورِ، وهو تعالى غنيٌّ عن القَسَمِ لعبادِه، ولكنه يَلفت نظرَهم إلى عظمة المقْسَمِ به، فإنه تعالى لا يقسِمُ إلا بعظيمٍ، والمسجورُ في اللغةِ هو الذي أُوقِدَ عليه حتى أصبحَ حارًا، والماءُ يتناقضُ مع النارِ؛ لأنّ وجودَ أحدِهما ينقضُ وجودَ الآخرِ، حيث إننا نطفئ النارَ بالماءِ، فكيفَ يكونُ البحرُ مسجوراً؟ بعضُهم قال: ألاَ تتألف ذرةُ الماءِ مِن الأوكسجين والهيدروجين؟ والأوكسجين غازٌ مشتعلٌ، والهيدروجين غازٌ يُعِينُ على الاشتعالِ، فلو أنّ اللهَ فكَّ هذه العلاقةَ الباردةَ بينهما لأصبحَ البحرُ كتلةً من اللهبِ، هذا معنًى، بيْدَ أنّ المعاصرين أثْبَتوا أنّ في قاعِ المحيطاتِ براكينَ تقذفُ باللهبِ من الصُّدوع، وهذه آيةٌ من آياتِ الله في خَلْقِه، حيث إنه لولا هذه النارُ لَمَا استطاعتِ الكائناتُ الحيةُ في قاعِ المحيطِ أنْ تعيشَ في هذه الظلمةِ الحالكةِ، والعلماءُ في أواخرِ الستينيات من القرنِ العشرين، أي بعد أكثرَ من ألفٍ وأربعمائة عامٍ مِن نزولِ هذا القرآنِ يقرّرون أنّ جميعَ المحيطاتِ، وعددًا من البحارِ قيعانُها مسجورةٌ بالنيرانِ، وهي الحقيقةُ التي ذَكَرَها القرآنُ قبلَ ألفٍ وأربعمائة عام، وسمَّاها :الْبَحْرَ الْمَسْجُور، فسبحان الله الخالق المبدع.

والخلاصة أنَّ مياه البحار من آيات الله، وعذوبة الماء وملوحتها من آيات الله، وما فيها من كائناتٍ ومخلوقاتٍ عجيبةٍ بديعة الجمال من آيات الله المعجزات، وهذه

---

(١) تفسير الماتريدي ٩/ ٤٠٢.

كلُّها جعلها الله تعالى في الأرض؛ ليُرِيَنا من آياته سبحانه، قَالَتَعَالَى:﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ ﴾[1]، أي: وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره، فتبارك الله أحسن الخالقين.

(١) سورة الذاريات: ٢٠.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

فقد انتهيت بعون الله تعالى وتوفيقه من إتمام هذا البحث وإكماله، وقد بذلت فيه جهدي وطاقتي، ويمكن أن أجمل أهم النتائج والتوصيات التي توصلتُ إليها على النحو التالي:

أولًا: النتائج:

*** إن البحث في الآيات الكونية ودراستها وتعلمها وتعليمها من الأمور المهمة، فقد أمر الله بالنظر والتفكر فيها؛ لأنه يقوي الإيمان في القلوب، ويؤدي إلى الإكثار من الأعمال الصالحة، والاستعداد للقدوم على الدار الآخرة.

*** تنوعت دلالة السماء والأرض في القرآن الكريم، فجاءت السماء لتدل على السقف والسحاب، والمطر، وسماء الجنة والنار، والسماء ذاتها أي الوجه المقابل للأرض، وهذا المعنى هو الأكثر ورودًا في القرآن، وجاءت الأرض لتدل على أماكن مختلفة هي أرض مصر، وبلاد الشام، والمدينة المنورة، ومكة، كما دلت على أرض الدنيا، وأرض القيامة، والأكثر أنها جاءت مطلقة لا تدل على أرض معينة، بل تدل على الوجه المقابل للسماء.

*** إن اغلب العلاقات التي اشتركت بين لفظ (الأرض) والمعاني التي خرج إليها تدل على الاستقرار والمكوث والسكون مع احتفاظ كل مفردة بدلالتها الخاصة بها ضمن السياق الذي وردت فيه.

*** جاءت السماوات في القران الكريم بصيغة الجمع الدالة على السعة والعظمة والكثرة حين يكون المراد العدد، وجاءت السماوات بصيغة الجمع للتناسق الصوتي وسهولة اللفظ، فضلًا عما فيه من إشارة ضمنية إلى الارتقاء بالإنسان

إلى المعاني العالية، وهي حكمة مقصودة وهدف منشود، أما الأرض في القرآن فقد جاءت بصيغة المفرد؛ لدفع الثقل فيه عند جمعه.

*** معرفة الهدي القرآني والنبوي تجاه الآيات الكونية والاستفادة منه، فإن أهم موضوع عالجه القرآن عند توظيف السماء والأرض في سياقاته المتنوعة هو وحدانية الله تعالى، فقد استدل القرآن الكريم بهما؛ لأنهما أضخم ظواهر الطبيعة الحسية؛ ليعلم أن وراءها خالقٌ قادرٌ وإلهٌ حكيمٌ.

***دلالة القسم بالسماء والأرض في القرآن الكريم إنما سيق من أجل تبيان النعمة التي فيهما، فضلًا عن أنهما من آيات الله الدالة على وحدانيته، وقد سيق للحث على التفكر في الكون وملكوته؛ لإقامة الحجة على الكافرين، وهذا النوع من القسم لم يكن معروفًا عند العرب، فصرف القرآن أنظارهم إلى السماء وما فيها والأرض وما عليها.

ثانياً: التوصيات:

***** التوسع في دراسة الآيات الكونية في كتب التراث؛ لاستخراج الدلالات المتنوعة بسياقاتها الواردة فيها.**

*****تفصيل البحث في آية من الآيات الكونية مثل: الماء، أو الشمس، أو الأرض، أو غيرها، وبيان دلالتها على قدرة الله تعالى، والتوسع في بحثها، وترجمتها باللغات الأخرى كالإنجليزية وغيرها.**

***** بيان دلالة الآيات الكونية على مسألة من المسائل العقدية، مثلاً دلالة الآيات الكونية على الإيمان بالملائكة، وعلى الإيمان بالقدر ... إلخ.**

***** دراسة لفظتي السماء والأرض بصيغهما المتعددة في القرآن الكريم والسنة النبوية من خلال السياقات الواردة فيهما.**

وأخيرًا، فإنني أحمد الله تعالى وأشكره أن أكرمني بإتمام هذا البحث، وإخراجه بهذه الصورة التي أرجو أن أكون قد وفقت بها في عرضه، وبيان أهم جوانبه على الوجه المطلوب؛ بغية الوصول إلى التعرف على أسرار القرآن الكريم، فقد وافق الموضوع غاية عندي حينما أودُّ البحث عن دُرر القرآن الكريم، ودلالاته المتنوعة.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل واتباع كتابه وسنة نبيه ﷺ وأن يجنبنا الزلل، وأن يأخذ بنواصينا لما فيه رضاه وسعادتنا في الدارين، وأن يثبتنا على الحق حتى نلقاه به، وأن يغفر لنا ولجميع المسلمين، إنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وعلى الله قصد السبيل.

المصادر والمراجع:

١-أسرار التعبير القرآني- د: فاضل صالح السامرائي- دار الكتاب للطباعة والنشر- جامعة الموصل- ط١- ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

٢-أضواء البيان للشنقيطي- دار ابن حزم- بيروت- ط٥- ١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م.

٣-بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادى- تحقيق: محمد على النجار- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- ط١-١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٤-التحرير والتنوير لابن عاشور - الدار التونسية- تونس- ط١- ١٩٨٤م.

٥-تفسير ابن كثير- تحقيق: سامي بن محمد السلامة- دار طيبة- ط٢- ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٦-تفسير أبي السعود- دار إحياء التراث العربي – بيروت- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٧-تفسير السعدي- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط١- ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.

٨-تفسير الطبري- تحقيق د: عبد الله بن عبد المحسن التركي-دار هجر للطباعة- ط١- ١٤٢٢ هـ /٢٠٠١م.

٩-تفسير الماتريدي- تحقيق د: مجدي باسلوم- دار الكتب العلمية – بيروت- ط١- ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٠-الجنى الداني في حروف المعاني للمرادى- تحقيق: د فخر الدين قباوة-دار الكتب العلمية-ط١- ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١١-حروف المعاني والصفات للزجاجي-تحقيق: علي توفيق الحمد-مؤسسة الرسالة – بيروت-ط١- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م

١٢-دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى- تحقيق: محمود شاكر- دار المدني- السعودية-ط٣- ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١٣-ديوان الحارث بن حلزة- صنعة مروان العطية- دار الهجرة – بيروت- ط١- ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٤-ديوان امرئ القيس- اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي- دار المعرفة – بيروت-ط٢- ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١٥-ديوان ذي الرمة- تحقيق: عبد القدوس أبو صالح-مؤسسة الإيمان جدة-ط١- ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٦-السماء في القرآن الكريم- د: زغلول النجار – دار المعرفة- بيروت- ط٣- ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٧- الصحاح للجوهري- تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار- ٣/ ١٠٠٩- دار العلم للملايين- بيروت- ط٤- ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٨-صحيح البخاري- اعتنى به د: محمد زهير الناصر- دار طوق النجاة – بيروت – ط ١- عام ١٤٢٢هـ.

١٩-صحيح مسلم – تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى-دار إحياء التراث العربي -بيروت- عام ١٣٧٤هـ /١٩٥٥م

٢٠-الكشاف للزمخشري – دار الكتاب العربي – بيروت- ط٣- ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٢١-لسان العرب لابن منظور – دار صادر – بيروت- ط٣- ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٢٢-مسند الإمام أحمد- تحقيق: شعيب الأرنؤوط – إشراف: د عبد الله التركي- مؤسسة الرسالة- ط١- ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٢٣- معجم ألفاظ القرآن الكريم- ١/٥٩٨- مجمع اللغة العربية بالقاهرة- ط٢- ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٢٤-المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم-إعداد: عبد الله إبراهيم-مركز

تفسير للدراسات القرآنية- السعودية- ط١- ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

٢٥-مفتاح دار السعادة لابن القيم-تحقيق: عبد الرحمن بن حسن-عالم الفوائد-مكة -ط١-١٤٣٢هـ.

٢٦-مقاييس اللغة لابن فارس- تحقيق: عبد السلام هارون- دار الفكر-١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٢٧- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة-محمد راتب النابلسي- دار المكتبي - سوريا - ط٢- ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٢٨-ا الفلكية د: خليل البدوى- دار عالم الثقافة- عمَّان- الأردن- ط١- ١٩٩م.

٢٩-نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر- لابن الجوزي- تحقيق: محمد عبد الكريم- مؤسسة الرسالة -بيروت- ط١- ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.